أَصداءُ الصِّبا

(قصة حياة)

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: أصداءُ الصِّبا (قصة حياة)

تـأليـــــف: محمد رشاد محمود

القـطــــع: 14*20

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

سنـة النشـر: 2024

النـاشــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 15712 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 5 - 530 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

9 789778 445305

أصداء الصبا

(قصة حياة)

محمد رشاد محمود

(1)

لم يكُنْ يدري وهو يَحزِمُ مَتاعَهُ الذي لم يَزِد على حقيبَةٍ حَشَرَ ثُلثَيها بالكتب مُيَمِّمًا أوربا بَدءًا من سوريا، مرورًا بالعراق ثم القطار الدولي – وحافِزُه إلى ذلك ضيقُ ذاتِ اليد عن السَّفَر المباشِر – أَنْ سيَلقَى مِن العنَت ما لن يُدرِكَهُ الفارِقُ بَينَ مُناشَدتِهِ نفسَه في الثَّانية والعشرين:

تنـــاءَي إلى أفـــقٍ بقَصـــْفكِ هـــامِ فتِلـك القِفـارُ السُّودُ ظِـلُّ جَهـامِ
أأَبقـــَى أســـيرًا لِلـــبلاءِ وهمـــَّتي مِـنَ البَحـرِ فـَوَّارُ الـذَّوَائِبِ طـامِ

وبَين أبياتِهِ في السَّادِسَةِ والعِشرينَ، وقد آضَ سَعيُهُ إلى غُمَّةٍ ومرارَةٍ تَطمِسانِ النَّفسَ:

غُضِّي جَناحَكِ ها قَد خانَكِ القمَرُ يا نَفسُ وانتَكَسـَت في عينِكِ الصـُّوَرَ
شـــُلَّ الفُؤادُ فلا حُســـنٌ يُحَرِّكُـهُ وهـَل تَروقُ صـــَريعَ اللُجـَّةِ الـدُّرَرُ
إنْ كُنتَ تَرجو جَمالًا لَســـْتَ تَملكُهُ في النَّفسِ لا حَســـُنَتْ في عينِكَ الغُرَرُ

وما كانَ يَعنيهِ في أوربا مَسْكَنٌ فارِهٌ ولا مَطعَمٌ فاخِر ولا عَلِمَ مِن نفسِه شَرَهًا إلى طعامٍ أو تَشَوُّفًا إلى عَرَضٍ، ولكِنَّه ذلكَ التَّوْقُ إلى الجمالِ الذي كانَ يملأ نفسَهُ، وذلك الشَّوقُ إلى المعرِفَة الذي كان يُمِضُّ جوانِحَه، والذي سيكونُ دافِعَهُ فيما بَعدُ إلى أنْ يَخُطَّ في كتابِه (همسُ جَناح) – وهو مجموعةُ من الخواطِر التي تلقَّاها تَلَقِّيَ الشِّعر – أَقْرَأُ السِّفرَ الرَّائِعَ، فأَتَنَسَّمُ رِيحَ الجَنَّةِ.

وقد شَبَّ مُستَوْفَزَ الحِسِّ، تُحرِّكُهُ النَّأمَة وتَهتاجُهُ النَّسمَة وتَشرَحُ صَدرَهُ الطُّيوبُ وتشجيهِ زَقزَقاتُ العَنادِل ويَخطفُ قلبَهُ اشتِجارُ الغُصون وأزاهِرُها الغَضَّةُ وتقَعُ مِن حِسِّهِ ابتِساماتُ الوَرد بأشكالِها ووَجناتِها الحِسانِ ونَفحاتِها العِذابِ مَوقِعًا بعيدًا، وتَروعُه أَواذِيُّ البَحرِ، ولَطالما وَقَفَ قُبالَتَه مع مطلَع الشَّمس يَتَحرَّى فَوْرَهُ ووَجيبَهُ بِقلبٍ واجِف. يَشُدُّهُ وَميضُ النجوم بالليل، وما في الكون من شارِدَةٍ ولا وارِدَةٍ إلا وداعَبَت أوتارَ نَفسِه ووَقَّعَت عليها الأفانين، أمَّا النور فلَهُ معه شَأنٌ آخَرُ، حتَّى لقد قالت له أمُّه ذاتَ يَومٍ: أذكُرُ أنْ كُنتَ تَتَوثَّبُ على كتفي وأنتَ بعدُ رَضيع مُتَهَلِّلًا لمرأى القمَر. وإنَّ له في نفسِه لأفاعيلَ خَطَّت في كُلِّ جانِحَةٍ من جَوانِحِه سَطرًا لا يزالُ يُحاوِلُ – عُمرَهُ – فَكَّ طلاسِمِه، وسَوفَ يُشدَهُ له ذاتَ لَيلَةٍ على ضِفَّةِ دِجلةَ،

فيُنشد:

ومَســــيرُ المـــوجِ بـــَينَ الـــ ـــــبَدرِ والظَّلمــــاءِ حـــائِر

رِعْشــــَةٌ تَجلـــو مُحَيـــَّا هُ رُؤًى في نـــــَومِ خـــائِرْ

وهو القائِل في أُنسِهِ به:

رِعشــَة النـــُّورِ علـــى صــَد رِكَ يا مـــــــَوْجُ حَيـــــاة

نَفْحـــَةٌ مـــِنْ نَفـــَسِ الـــرُّو حِ علــــى حــــَرِّ الشــــَّكاة

ومِن قَبلُ هَتَفَ:

مِهرَجـــــانُ اللــــونِ في قلــــ ـــــبي وفيمـــــا أرتَئـــــِي

كــُلُّ لــَونٍ مــِنْ ســَنا الأكـــ ـــــوانِ يَنـــــْثو مرفئــــــي

ولا عَجَبَ أنْ يقولَ العقَّاد:

النـــــورُ ســـــِرُّ الحَيــــاة النـــــُّورُ ســـــِرُّ النَّجـــــاة

المِحـــــــهُ بالـــــــرُّوحِ لا لَمـــــحَ العيـــــونِ الخـــــُواة

وأن يُناشِدَ القَمَر:

إذا أنا واراني الــــتُّرابُ فَحَيــــِّني بِنــورِكَ في تِلــكَ الغَيَابــَةِ يا بــَدرُ

وليسَ عجيبًا أنْ يُغَمغِمَ جوته وهو على فِراشِ الموت: مَزيدًا مِن النُّور. وستَنْقَضي به الأيَّامُ، فيَقِفُ مُكِبًّا على رأسِ أمِّه، فيَسمَعُها في النَّزعِ الأخير هامِسَةً: يااه .. أكُلُّ ذلكَ النُّور؟ !

إنَّه لفي الطائرَة الآنَ، يَجلِسُ إلى جانبِ النَّافِذة، فيَرى النور نفسَه صَبيحَةَ يومٍ من أيَّامِ سِبتمبر عامَ 1977 يُطَوِّقُ الأرضَ تَطويقَ السوارِ لِلمِعصَم في مَشْهَدٍ ما كانت لِتطالهُ مُخَيِّلتُه، وتَوثَّب ذِهنهُ إلى أنوارِ باريس التي كانت مُبتغاهُ مِن رِحلتِه، والتي راحت تُخالِجُ ذِهنَه كما تَقدحُه الخاطِرَةُ الرائِعة يَقْبَسُها من الكتابِ القَيِّم.

كانت طائرةً صَغيرةً، إذا مَخَرَتْ قلبَ السَّحابَةِ ارتَجَّت، وإذا اعتَلَتْ مطبًّا هَوائِيًّا راحت ترْتَجِفُ ارتِجافَ الرِّيشة في مهَبِّ الريحِ وقلوبُ المسافِرينَ معها بَينَ صُعودٍ وهبوط، حتَّى استَقرَّت في مطار دِمشق الدَّولي، فالتقَطَ الرَّكبُ أنفاسَهم وفَتَحَت له دمشقُ أبوابها معَ الدَّاخلين، وما دارَ بِخلَدِهِ أنَّها سَتتَنَكَّرُ له فِتُطبِقُ عليه إحدى قلاعِها المجيدة، حتَّى تَكادُ تَختَلِجُ رُوحُه قَبلَ أضْلُعِه.

هذه دِمشق إذَن وتلكَ شَوارِعُها الفِسَاحُ ومبانيها الحِسانُ وأسواقُها العامِرَةُ ومآذِنُها الشَّماءُ لها عَبَقٌ كرائِحةِ الوردةِ الجورِيَّةِ كما يُسَمِّيها الشَّاميون، في خدودِ فَتياتِها وشِفاهِهنَّ أثرٌ من ظِلالها وفي تأوُّدِهنَّ خيالٌ من أغصانِ دَوحاتِها وعلى وجوهِ أهلِها السِّماحِ شَواهِدُ النَّدى والكَرَم وفي سَجاياهُم شيءٌ يَرجِعُ إلى بني أميَّة ويَنمُّ عن أرومَةِ العَرَب، وسَوفَ يَلقَى مِن سُلطاتِها التي جَثَمَت على صَدرِها عنوَةً بعدَ أعوامٍ – معَ ذلِك البِشر – ما يُبَعِّضُه في نَفسِهِ وجَسَدِه.

سَتكونُ المرَّةَ الأخيرَةَ التي يراها فيها بِلا قَيدٍ في يَدَيه عيانًا دونَ قُضبانٍ وشُرطِيٍّ ساذج، لا يَعرفُ شَيئًا عن نَفسِهِ وأشواقِ روحِهِ. تِلكَ دِمشق أرضُ المحشَرِ التي قالَ

فيها الرَّسولُ، صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ فسطاطَ المسلمينَ يَومَ الملحَمَةِ بالغوطَةِ، إلى جانبِ مدينَةٍ يُقالُ لها دِمَشق مِنْ خَيرِ مَدائِنِ الشَّام.

يُحِبُّها مَن سَكنها ونَسمَ أنفاسَها حتَّى لَيقول شاعِرُها الأخطَلُ الصَّغير:

باكَرْتهـا والزَّهـْرُ يَشـْرُقُ بالنـَّدى ... في فِتْيـَةٍ شـُمِّ الأنـوفِ صـِباحِ
أهـل النـَّدَى والبـأسِ إنْ تَنـْزِلْ بهِمْ ... تَنـْزِلْ علـى عـربٍ هُنـاكَ فِصـاحِ
الشـَّامُ مَنْبـِتُهُم وكـَم مـِنْ كَوكـَبٍ ... هـادٍ وكـَمْ مـِنْ بُلبـُلٍ صـَدَّاح
نَسَلَتْهُمُ أمْضَى السُّيوفِ فَهَذِهِ ... لابـْنِ الوَليـدِ وتِلـكَ للجـَرَّاحِ

ويقولُ:

وَطـَنٌ أعـارَ الخُلـدَ بَعـضَ فنونـِهِ ... وسـَقَى المكـارِمَ فَضـْلَةَ الأقـداحِ
والشـَّمسُ فـَوقَ سـهولِهِ ونجـودِهِ ... عَرَبيـَّةُ الإمسـاءِ والإصـباحِ

ويُعَبِّرُ عن حَبِّه بقولِه:

سـَأَلَتني وكفُهـا فـَوقَ قلـبي ... عمـْرَكَ اللهَ هـل تحـُبُّ الشـَّآما
قُلـتُ حُبـًّا زَقَّ الحمامـَةِ للفـَرَ ... خِ فَلـِمْ لا نَكـونُ ذاك الحمامـا؟

وكذلك قولُه:

لي في قَرارِ الكـَأسِ بعـدُ بَقِيـَّةٌ ... سَمَحَـتْ بها الآلامُ لِلعُوَّادِ
حَنَّـت لها خُضْرُ الدَّوالي رِقَّةً ... بَكـى لها جَفنُ النَّسيمِ النَّـادي
هِيَ كُنْهُ إحسـاسي ورُوحُ قصـائدي ... ومَطـافُ أحـلامي ورُكْـنُ وِدادي

ويَفخَرُ بها وبأهلِها فيَقولُ:

تِيهًا دِمشقُ هل المِفاخِرُ والعُلَى ... غَيرُ الجِهادِ وصَلتِهِ بجِهادِ
تِلكَ الشَّمائلُ مِن شيوخِ أُمَيّةٍ ... عبَّاقَةُ النَّفَحاتِ في الأحفادِ
الحاملينَ الشَّمسَ فَوقَ وجوهِهِم ... والحاملينَ الشُّهبَ في الأغمادِ
خَلَعَتْ صَوارِمُهُم على راياتهِم ... حُلَلًا مُصَبَّغَةً مِنَ الأكبادِ
وَرَمَوا بها أمَّ الزَّمانِ فأنجَبَتْ ... غُرَرَ الملوكِ وقادَةَ القُوَّادِ

ويهتِفُ شاعرُها شَفيق جبري:

عاشَتْ دِمَشقُ فما هانت على قِدَمٍ ... تَزيدُ في بأسِها الأيَّامُ والقِدَمُ

ويقولُ:

وَطَنٌ إذا ائتَلَفَتْ قلوبُ حُماتِهِ ... قَهَرَ الشُّعوبَ فلا تَصولُ مَصالَهُ

ويدعو:

سِرْ في دِمشقَ ونادِمْ إن نَزَلتَ بِها ... عِصابَةً نادَمَتها رُوحُ حَسَّانِ

مُشيرًا إلى قَولِ الصَّحابي حَسَّان بن ثابتٍ:

للهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمتُهُم ... يَومًا بِجِلَّقَ في الزَّمانِ الأوَّلِ

وفيها يَقولُ القاضي الفاضِلُ:

أمـــــَّا دِمَشــــــْقُ فَجَنـــــــَّةٌ　　　يَنســَى بِهـــا الوَطَـــــنَ الغَريـــبْ
أرضٌ خَلــــَتْ ممـــــِّن يُنَغــــِّـ　　　ـــــصُ أو يُراقـــِبُ أو يَعيــــبْ
في مــــَوطِنٍ غـــــَنَّى الحَمـــــا　　　مُ بـــِهِ علـــى رَقـْصِ القَضـيبْ
وغــــــدَتْ أزاهـــــِرُ رَوْضـــــِهِ　　　تَختــــالُ في فــــرَحٍ وطِيــــبْ

ويهيمُ بها نِزار قبَّاني فيُناجي:

وددتُ لو زَرَعوني فيـكِ مِئـذَنـَةً　　　أو علَّقوني على الأبوابِ قِنـديلا

ويَخلِطُ نَفسَهُ بفَيْضِها وخِصبِها وجَناها، فيُباهي:

هَذي دِمشقُ وهَذي الكأسُ والرَّاحُ　　　إنِّي أُحِبُّ وبَعضُ الحـُبِّ ذَبَّاحُ
أنا الدِّمَشقِيُّ لو شَرَّحتُمُ جَسَدي　　　لســالَ مِنـــهُ عناقيـــدٌ وتُفـــَّاحُ

ومِنْ قَبلِهِ رَنَّمَ الرَّصافي:

أعَلِمــــــتِ أنِّي في دِمَشـــــــ　　　ـــــقَ أجــــُرُّ أذيالَ الســـُّرور
بــــَينَ الغَطارِفـــــَةِ الذيـــــ　　　ــــنَ تخـَـافُهُم غـيَرُ الـدُّهور
مـــِنْ كــُلِّ وَضـــَّاحِ الجَبـــينِ　　　أغَـــــرَّ كالبَـــــدرِ المنـــير
حـــُرِّ الشــــَّمائِلِ والفعــــا　　　ئـــِلِ والظـــَّوَاهِرِ والضـــَّمير

دِمَشقُ حاضِرَةَ العَرَب ومُنطَلَقَ الإسلامِ إلى آسيا ومَعينُ الدِّين والفِكر والعِلم والأدَب. لقد ودَّ لَو استطاعَ أنْ يَجوبَ دُروبَها العتيقةَ وأن يَجولَ في رياضِها ويَشهَدَ

محافَلَها ومقاهيها العامِرَةَ ولكنَّ لهُ هَدَفًا، وشاغِلُهُ الآنَ أنْ يحجِز بِطاقَةَ سَفَرٍ إلى العِراق ولو طاوعَ نَفسَهُ لما رضِيَ للمقامِ بها بَديلًا، ولو كان بها قِطارٌ دوليٌّ يُفضي بهِ إلى باريس لأطال اللُّبثَ بها ما استطاعَ، وإنَّه لَيَزيدُ من حَسرَتِهِ أن تنتهيَ به السيَّارَةَ التي كانَ يَستَقِلُّها إلى مكتبٍ للسَّفَرِيَّات مُتاخِمٍ للمسجدِ الأموي فيخشى أن تَفوتَه السَّيارَة المتَّجِهة إلى بَغداد ولا يَجِدُ من الوقت ما يُتيح له أداءَ ركعتين به والطَّوف في جنباته التي تشهدُ ببراعة الفن الإسلامي، وبه أول مئذنةٍ تقامُ في الإسلام، ثم إن به مدفن رأس النبي يحيى عليه السَّلام وغير بعيد عنه مدفن صلاح الدين الأيوبي وقريب منه إلى الغَرب مدخلُه الرَّئيسي مِن قِبَل سوق الحميدية، حيثُ بقايا معبد جوبيتر الروماني التي تخلَّفت عن الزلازل وتمثَّلت في أعمدةٍ ومُقدِّمةٍ للقوس الرَّئيسِيَّة للمعبد والذي تَحوَّلَ في عهد الإمبراطور الرُّوماني تيودوس الأول إلى كنيسة سُمِّيت باسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وعندما دخلَ المسلمون دمشق تمَّ تحويل نصفِه إلى مسجد وبقِيَ نِصفُه الآخَرُ كنيسةً إلى أن قام الخليفةُ الأموي الوليد بن عبد الملك بتحويله كله إلى مسجد عام 86 للهجرة (705 م) بعد أن استسمحَ أصحاب الكنيسة وقدَّمَ لهم بديلًا منها.

كان الصَّيف؛ فأحسَّ بالعطَش ففتَحَ صنبورًا ليَعُبَّ من ماء بَرَدى وإذا به يتدفَّقُ باردًا شبمًا كأعذَبِ ما يكون .. هيَ بَصمَةُ الشتاءِ على هامَتِهِ، حيثُ يتحَدَّرُ من منبعهِ في الشَّمال الغربي من جبال لبنان الشَّرقية بارتفاع يَبلُغ 1400 مِتر متوَثِّبًا إلى الجَنوب الغربي في شَوطٍ يبلغُ نحو 20 كيلومترًا، فيشرعُ في جَرَيانِهِ إلى دمشق من

ارتفاع 1100 متر متَّجهًا شرقًا فجنوبًا، فيَنتشِر إلى سبعة أنهار بها بعد أن يُلَملِمَ معهُ عِدَّةَ روافِد من أودية الزَّبداني السَّيليَّة في الرَّبيع والشِّتاء، ثم ينبِضُ في شرايين دمشق ودمشق القديمة ويسرَحَ بالغوطة، فيدفق فيها الريَّ ويَصبُّ في كأسه نبعُ الفِيجة مِدرارًا، ليُرضِعَ أهلَ دمشق وما حواليها من مراكز في ذلك الوقت، ثم يصُبَّ بعد رحلةٍ قارَبت السبعينَ كيلومترًا في بُحيرَة العتيبة، وقد كَدَّرته في زمننا هذا يدُ الإفساد فشَيَّبتهُ قبل حين مشيبهِ وكأنما تمثَّلَ صورةَ الواقِع العربي، فراحت المطاعم والمنشآت السياحية تصُبُّ في صفائه نفايات البطون والقمامة، حتى أجَنَ واستغشَى بكَدَرِها يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ أو يكاد، وهُوَ هُوَ الذي قدَّسَهُ اليونان قديمًا وسَمَّوْهُ نهرَ الذَّهَب، وها هو ينفثُ من فيهِ البَخَرَ بعدَ أن كان ينفَحُ نسماتٍ مُعَطَّرَةً بأنفاس الورد وعبَق الثِّمار اليوانع ويترقرَقُ بذكرِهِ صوت فيروز:

مــــرَّ بي يا واعـــــدًا وعـــــدَا ... مثلمـــا النَّســـمة مـــن بـــرَدى

ومن قبل زَكَّاهُ حسَّان، رضيَ الله عنه، فقالَ:

يســقونَ مـِن ورد الــبريص علــيهمُ ... بــرَدَى يُصــفَّقُ بالرَّحيــقِ السَّلســلِ

وقد نظرَ إليه شَفيق، فقال:

هــذا الرَّحيــقُ وفي أظلالــِهِ بــرَدَى ... يجــري بــروضٍ علــى الفيحــاءِ رَيَّانِ

وقرَنَه الأخطل الصغير بالنيل، فقال:

بــرَدى شـَقيقُ النِّيــلِ مُنــذُ أُمَيــَّةٍ ... جُمِعــا علـــى الأفـــراحِ والأتـــراحِ

نَسَبٌ كَخَدِّ الوَردِ في شَفَةِ الضُّحى يَختـــالُ بـــَينَ العـــاصِ والجـــَرَّاحِ

كما قَرَنهُ شفيق جبري بدجلة والفرات بقوله:

فَمـا بـَرَدى لـولا الفـراتُ بمِـَورِدٍ لِظمـآنَ إنْ يَشـرَبْ مـن المـاءِ يَشْـرَقِ

ولا دِجلـَةٌ لـَولا مناهـِلُ جِلـَّقٍ بِمَجـرًى بـَرُودٍ كـالرَّحيقِ مُصـفّقِ

وترَنَّمَ به الأخطل الصغير:

بَرَدَى هل الخُلدُ الذي وَعَدوا بِهِ إلاكَ بـــينَ شـَـوادِنٍ وشــــوَادي

قـالوا تحُـِبُّ الشـَّامَ قُلـتُ جـَوَانِحي مَقصوصـَةٌ فيهـا وقُلـتُ فـؤادي

وصَدَحَ فيه جورج صَيدَح:

حَلمتُ أني قريبٌ مِنكَ يا برَدى   أَبـُلُّ قلـبي كمـا بـَلَّ الهَشـيمَ نـدَى
ونصبَ عيني من البلدانِ أبدَعُها   سُبحانَ مَن أبدَعَ السُّكَّانَ والبَلَدا

وأنصَتَ إلى تغريدِهِ في الضفَّتين ووَشيهِ بدَوِيِّ الجَبَل:

بـــــرَدى والـــــورودُ في ضــــفَّتَيْهِ   مُصـــــغِياتٌ لِشــــعرِهِ والخُزامــــى

كما سمِعَ قصيدَهُ نزار:

هواكَ يا بردى كالسَّيْفِ يسكُنُني   ومـا مَلَكـتُ لأمـرِ الحـُبِّ تَبـديلا
والنَّهـرُ يُسـمِعُنا أحلـَى قصـائِدِهِ   والسَّروُ يَلبَسُ بالسَّاقِ الخلاخيلا

واستلذَّ تَرَشُّفَهُ الجواهري:

بــــــرَدَى كــــــأنَّ بــــــرودَهُ   رَشــــفاتُ معســــولِ الرُّضــــاب

وعطَّر سلامه بنسائمه شوقي:

ســـلامٌ مـــن صـــبا بـَـردى أرَقُّ   ودمــــعٌ لا يُكَفكـَـفُ يا دِمشـــقُ

وكأنَّما كانَ يستشرِفُ فجيعة الدَّمِ المراقِ من بطش بني الأسد بأهل دمشق سِماح الوجوه، باذلي الأنفُس، وبسوريا كُلِّها.

سرعانَ ما أقبلت سيارة (الميكروباس) وراح المسافرون يُحَمِّلونها متاعهم في جَلَبَةٍ كما يحدُثُ أبدًا، واستقلَّها معهم سبَّاقًا إلى جوار النَّافذة، وقد بقيَت هذه عادةً فيه مُنذ الطُّفولة حتى لا يفوتَهُ مَعلَمٌ من الطَّريق ولا مِسحَةُ من جمال عابر، وسوفَ تمُرُّ المعالمُ

تَترَى غنيَّةً بمشاهد المدن التي لا تملُّها العينان والتي تجمعها سماتٌ عامة وتُفرّقها خصائِصُ ينفردُ بها كُلُّ بلَد، وعلى قدر ما يضربُ البلدُ في الحضارة تبرُزُ له قَسَمات لا يُشارِكُه فيها غيرُه فكأنَّه الوجهُ البشريُّ يُرى مَرَّةً فلا تتخطَّاه الذاكرة في حين لا تعلقُ بها وجوهٌ مُكرَّرة، كلُّها في البلادَةِ سواء، ولقد رأى هذا في دمشق، وسيراه في عمَّان.

وعلى الرغم من طول لبثه في العراق فلن يَتبيَّنه إلا في محضر الرَّافدين، ثمَّ تُمسَخُ المعالم فيبدو الوجه كوجهِ الحَيزَبون، دواعي النفور منه تطمسُ دواعي الأُنسِ به، وكيفَ لا يكونُ ذلك وقد سُجِنَ به تَجَنِّيًا فما استَشعَر فرقًا بين السجن الصغير الموصَدِ بالأبواب الفولاذية والمحاصَر بكل جِلفٍ أرعن، كأنَّ بينهُ وبينَ الخلاقِ ثأرًا فهو موكل بالانتقام ممَّن يقعُ بين يَدَيهِ من كل ذي مروءةٍ، وبينَ السِّجن الكبير خارجَ الجدران في بلد يجثم عليه شبَحٌ ثقيل من الرَّهَب ويخال المارُّ في طُرقاتِه أنه مُراقَبٌ وأن الأرضَ تلفظه والسماءَ ترجُمه والنسائم الملتهبة في الصَّيف والمقرورَة في الشتاء تَشي به للسلطات وتومئ إليه.

أنَّ له رأسًا حُرًّا يرى غيرَ ما ترى ويعرف لمعاني الحرّية الإنسانية في سبحات الفكر والشعور وخَلجات النَّفسِ ودواعي التَّشوف للرُّقي الخُلُقي ما لا يخطر لها على بال؟ ولكن مهلًا فإنَّ لذلِكَ حديثًا يطولُ، وما زلنا في بداية الطَّريق.

(2)

ما إن تخطَّت السيارة المدينةَ وأخذت في طريق الشام الدولي متَّجِهَةً إلى بغداد حتى انفغَر للبياب على جانبيه مسلَكٌ تضمَحِلُّ فيه المعالم، فلا يهجمُ على العين إلا اصفرارُ الرمال التي راحت تَشحب مع المغيب وتستحيلُ رماديَّةً ثمَّ يطويها الليلُ في طيلسانِه كلما خطَفت السيارة من الطريق شوطًا فتندرجُ في سوادِهِ فيخالطُ النَّفسَ المرهَفَةَ من ذلكَ شعورٌ بالتَّهَيُّب من المجهول وشيء من التسليم للمقدور، فتلكَ صَيحَةٌ قد خَرَجَت من الفَمِ، وهيهاتَ أن تعودَ، وهل نحنُ إلا نغماتٌ تُوَقِّعُها أصابعُ القَدَر في مَسمع الوجود؟ أفَيملكُ هذا الكائِن المغرور – مهما أوتي من أسباب السعي وحِيل الكسب والتدبُّر – أن يزعمَ أنه قائِدُ نفسُه إلى ما يجلُب له النفعَ أو زاجرُها عما يعودُ علَيهِ بالمضَرَّة؟

في الهزيع الأخير من الليل وقرب شقشَقة الفجر وقفت السيارة عندَ مدخل العراق، وأمَرَ الجُند الواقفون الرَّكبَ بالنزول، وراحوا يُفتِّشونهم واحدًا واحِدًا ويفحصونَ حقائبهم في غير رَيثٍ ويُبعثرونَ أغراضها ذاتَ اليمين وذات الشمال وكأنَّما وقعوا على عدوٍّ يتخطَّى الحدود من غير بابها مُصدرينَ الأوامر في لهجةٍ لا تخلو من عنف بدَّدت من نفسه ما كان يتماوج فيها مِن حِس الجمال الذي استودَعَته إياه رحلة الأمس وأهازيج المساء التي عمرَ بها وجدانه، وكانت أنغام الموشَّحات العراقية الحزينة لا تزالُ تتردد في مسمعه نافِضةً على روحهِ لذَّةً شَجِيَّةً أو شَجًى مُستَلَذًا، فكان كمَن استفاق من دعة النوم على رعد القذائف، ولزِمتهُ من

حينها كآبةٌ لم يجِد معوانًا عليها غير مُناشَدَتِهِ نفسَهُ أن صبرًا فإنَّما هي مرحلةٌ عابرةٌ في شوطٍ طويل ، لعلَّه يحمل من المسرَّات ما يُنسيه سخائم الأنفس ويُدرِجُ في لفائِف سَعدهِ أشباحَ الأذى، أو يَذُبُّ عنه بواعث الأحزان، ولكن راح يتساءل في موجَدةٍ: ما الذي يجعل أمثال أولئك يُخاشنونه وأصحابه هذه المخاشَنة؟ وأى ثأر لهم عِنده أو عندهُم يَحدوهم إلى ذلك الشَّطط في التَّحَرّي؟ وإذا كانت هذه مُعاملة العربي للعربي، بغير ما مساءَةٍ اقترفَتها يدُه، فكيفَ لو أساءَ إليه أو خذلَه في موقف يستدعي المؤازرة؟ ومن الذي أوجد بين الأخ وأخيهِ هذه الحدود ولمَ لا يكون السفَر من بلدٍ عربي إلى مِثله بغير أوراق رسمية ولا جواز سَفر؟ حقًّا لقد أفلحَ المستعمرون في بثَّ روح التنافر والتفرقة بين الأشِقَّاء على نَحو لم يدُر لهم في خلد، في حين ألغَوا ما بينهُم من موانع في التقاء الأراضي والأنفس بقدر ما فرَّقوا بيننا، ولعل القطار الدولي الذي قصَد العراق من أجلهِ أكبَرُ شاهِد على ذلك.

وهنا انتعشَ روحُه ونفضَ عن نفسِه؛ لذكر مطمَحهِ خوالج النفور، فما هي إلا سنة أو بعض السنة يجمع فيها من المال ما يقتدِر به على مواصلة الرِحلة إلى أوربا، فيكون من رُكاب ذلك القطار ينتَهبُ به الأرضَ انتهابًا.. بذا كان يُحدِّث نفسه في حين كان القدر يُضمر له شأنًا آخر، ستُصهرُ في أتونهِ نفسه فيعودُ كذلك خلقًا آخر، والعجيب أنه لن يخرج من المعانَاة والتنكيد اللذين سوف يئِنُّ تحت أوزارهما إلا وقد ازداد عطفًا على الإنسانية الآسية ورهافةً لأنين المكلومين، فحيثما كان كليم طوَّحت به المقادير في أواذيّ غبنه، أو مُدرج بيد البطشِ في غلائل تعسه كان فؤاده

هُناك يجِفُ في صدره، يألم لألمه، ويودُّ انجيابه عنه كما يود انجيابَ الهمِّ عن خاطِره والمرارة عن نفسه وما أنَّ مظلوم إلا تحرَّكت بين جوانحِهِ دواعي الهِمَّةِ لنَجدتهِ والانتصاف له من ظالميه.

استأنفت السيارة مسيرَها، فما انبلجَ النهار حتى كانت تلجُ بغداد وتخطر في مُنعرجاتها، وأول ما أخذَ بخاطرِهِ مِعمارُها الذي قلَّت طوابِقُ مبانيهِ وقبابُ مساجدها التي زُيِّنت بالفسيفساء، وبدت مبانيها خليطًا من قديم يلوِّح بشناشيلهِ البغدادية، ويتكوَّن من تجاورها أحياء، يطلق العراقيون على الواحد منها اسم (العكد) أو (الدربونة) ومن حديث يتشابه من ظاهره مع المعمار المعهود في غالب المدن، وبدا الاهتمام برصف شوارعها واتساعها للمارة ووسائل المواصلات التي جذبَ انتباهَهُ منها تلك الحافلة (الأتوبيس) ذات الطابقين، في حين غلَب على أهلها الزي المدني، وقلَّ أن رأى من يلبَسُ فيها الجلباب.

إنه الآن لمرهَق، فما عرفَ الرَّاحةَ مُذ فارَقَ مصرَ، وإن جسدهُ لموجَع، وبيده حَقيبة تُثقِلُهُ وتَشُدُّه إلى الأرض، فليكُن وكدهُ الآنَ أن يجد فُندُقًا متواضِعًا لا يَبهَظُه، يَطَّرِحُهما فيه ويُغمضُ عينيه اللتين لن تعرفا النوم قريرتين في بغداد مُنذ الآنَ أبدًا، وليكن قائده إليه جماعَة من صحبِهِ في السَّفر، عزموا مِثله على اتِّخاذ العراق مطيَّة للسفر إلى أوربا، وسيتبين له أن وجهتهم كانت إيطاليا، وإنهم ليسلكون منها مَسلكَ العارفيها، فما ينقضي أقلُّ من الساعة إلا وهم يسلمون جوازاتهم لراعي الفندق ويلقون أنفُسهم على الأسِرَّة يُبغونها راحةً من كدحٍ إلى حين وملء أحداقهم التي

خالج إنسانها النوم صوَر لآمال في الغد، منها ما سوف يصدق فيُشرِقُ بسعد صاحبه، ومنها ما سوفَ يُخلف فيَغرُبُ بمطامحِه وأمانيه.

استفاق الصَّحبُ ودبَّت في المكان حركة النَّاهِضِ من سِنَةٍ استَودَعها أوصابَهُ وحَشَدَ معها آمالًا تأبَّى خاطِرُهُ أن يُحيلها حُلمًا، فكأنَّما أخمدها في المنامِ ليَدفَعها بِجماعِ قوَّتِهِ في الصَّحو نافِضَةً عنها الكَلال، والنفسُ إذا استبطَنت المأرَبَ واستجمَعت له الرَّغبة الصَّادِقة راحَ العزمُ يُغَوِّرُ في ساحِها ويَبْسُطُ مَرماهُ، حتَّى لَتستَحيل – معَ فَورَةِ الشَّبابِ – كِفاتًا رُوحًا وجَسَدًا، فلا تَنفَكُّ سائِقةً مِن ظاهِرِ أمرِها ما يَلحَقُ بما جَنَّتهُ في سريرَتِها، وراحَ كُلٌّ – مع ذلك العزم – يتَفَحَّصُ أغراضَه ويَستَحضِرُ أوراقَهُ، وكانوا قد أعدُّوا لرِحلَتِهم عدَّتها وأخبَروهُ أنَّ وِجهَتَهُم إيطاليا، فاستفسَر عن قيمَة بطاقة السَّفر، فإذا بها تخرُجُ عن طَوقِه، وماذا عسى أن يملكَ خِرِّيجٌ مُحدَثٌ حتَّى يتَّخِذَ إلى إيطاليا أو غيرِ إيطاليا سبيلًا؟

فليذهب الذاهبُ منهم إذن دونه، وكلُّ عدَّتِه دنانير وتهيُّؤ للعمل الذي لا نصيب للروح من غلَّاته سوى الإنفاق على ملذَات الجسَد فلا يكون له من استِشراف الرُّوح ما يُجَنِّحُ به على فينيسيا مبعَث إلهام كُتاب عصر النَّهضة بأوربا ومنبت حكايات ألف ليلة وليلة الغرب، ولن يُكلف قدميه بأن يخطر فوقَ ساحة القديس ماركو حيثُ منزل الرَّحالة ماركو بولو أو يسمع لتنهُّدات كازانوفا تتَهَدَّجُ منذُ القرن الثامنَ عشر، وبعيد عن ذِهنِه أن يردَ عليه ذِكر تاجر البندقية لشكسبير، سيمرُّ – لو مرَّ – على الكاتدرائية، فلا تجنحُ به نفسُه إلى تسنُّم برج الجرَس البيزنطي الذي

يطِلُّ منذ أكثرَ من ألفِ عام أو التَّطلُّع من برج الساعة واستشراف مناظر المدينة خلَّابةً على مدى البَصَرِ وسيعبُرُ قصر دوجي بطرازه القوطي فلا تُهاتِفُه آياتُ مُتحَفِهِ أو يتمثَّل رِكزَ الوالي يرتع في غرفاته و يَلِجُ مسارِبه السِّرِّيَّة التي جعل من بعضِها سجونًا لمن ألقى بهِ حظُّهَ العاثر تحتَ يَدَيه..

سيمُرُّ بمُتحَف الأكديميا غافِلًا عمَّا به من تُحَف فنيَّة لكبار فناني ورسَّامي العالم قبل القرن التاسعَ عشر، وبمُتحَف كورر بمجموعاته الفنيَّة الفريدة تحكي تاريخ المدينة وتترجم لشخصيَّاتِها فلا يُعيرهُ انتباهًا، وسَيتَخَطَّر أمام مُتحَف السيدة بِجي جوجنهايم فلا يُمَتِّعُ ناظرَيهِ بلوحات سلفادور دالي ومارك شاجال وبيكاسو وأضرابهم، ولعله يُلقي نظرَةً عجلى على القصر الذَّهبي كادورو أجمل القصور في فينيسيا، وغالبُ الظَّن أنه كانَ سيقصد سوق ريالتو ليلتهِم وجبةً من المأكولات البحرية ويُحَلِّي فاهُ بالآيس كريم فلا تُحدثه نفسُه بأن يتَلبَّثَ عِندَ جِسرِها الكبير فوقَ القناة الكُبرى، التي تصِل إلى شَبَكة الممرَّات والأزِقَّة البحريَّة الرائعة..

سيُعرض عن سمات تلك المدينة، ولن يتفكَّر في تاريخها إذ ليس يدخلُ في وَكْدِهِ أن يَتَفَكَّر، وقد كانت في زَمانٍ ما من العصور الوسطى جمهورِيَّةً مُستَقِلَّة، بسطت نفوذَها على أجزاءٍ واسِعةٍ من سواحِل البلقان على البحر الأدرياتي وعلى الكثير من جُزُرِه وجُزُرِ بحر إيجة، وسيطرت أحيانًا على جزيرتي قبرُص وكريت وعلى أوترانتو سَيطرَةً عسكَريَّةً حَوَّلَتها إلى إمبراطوريَّةٍ بحرِيَّةٍ كُبرى، لن يَردَعها إلَّا اكتِشافات الإسبان والبُرتغاليينَ البحرية،وسطوة العثمانيين على البلقان..

سوف يمشى الماشي من صحبه ذاهلًا عن عيونها، وقد لا تُحدِّثُه نَفسهُ باستئجار جندول يشقُّ به الماء تحتَ (جسرالتَّنهُّد) الذي طالما سِيقَ فوقَه الذين قُدِّرَ عليهم الإعدام إلى قاعات المحاكم في قصر الدوكا مُتَهدِّجي الأنفاس حسَرةً على حياةٍ خَبَروا جَمالها وتَهَيُّبًا من مصيرٍ لا يعرِفونَ مآلَه، ولن يستحضِر شدوَ محمد عبد الوهَّاب بترنيمَة علي محمود طه:

أيــن مــِن عيــنَيَّ هاتيــكَ المجــالي يا عــروسَ البحــرِ يا حُلــمُ الخيــالِ
أيـــنَ عُشـــَّاقُكِ سمـــُّارُ الليـــالي أيــنَ مــن واديــكِ يا مهــدَ الجــلالِ
مَوكِــبُ الغيــدِ وعيــدُ الكرنفــالِ وسـُرى الجنـدولِ في عـرضِ القنـالِ

بينَ كأسٍ يتَشَهَّى الكرمُ خَمرَه

وحبيبٍ يتمنَّى الكأسُ ثَغرَه

التَقت عيني بهِ أوَّلَ مَرَّه

فعرفتُ الحبَّ مِن أوَّل نظره

سيقضي أحدُهم ما يقضي من أمور الجَسَد؛ فإذا جنَّحَ إلى روما لم تتَخطَّ مُخيلته ما ترى عيناهُ من أحجار الكلوسيوم، فيشهَد أشباح المصارعين يتجالدون جهدَهُم بآلات الفتك حتى يكلَّ المنهزم، فيسقطَ مُضرَّجًا يشخُبُ دَمُهُ بين هتاف الجمهور الذي أسكرَته كثرَةُ الدِّماءِ فما عادَ يَفَرِّقُ بينه وبين الماء والإمبراطور باسمٌ مبتهجٌ بما

أرضى بهِ شَهوَة البطشِ – ولِلبَطشِ شِهوةُ لدَى الطُّغاةِ مُشَوَّهي الشيَم والضَّمائِر – وبما رفَّهَ بهِ عن العامَّةِ ومَكَّنَ في مُستَسَرِّ رُوعهم من مَهابته وقدرَته على التَّنكيل بخصومِه.

سيَمُرُّ بالمسَلَّة المصرية بساحة الشَّعب، فلا يُخالجُه مِن مَرآها حنينٌ إلى بلَده أواستشعارٌ بعراقَة تاريخِهِ أو هِزَّةٌ لجمال فنِّهِ، فضلًا عن أن تبتَعِثَ في نفسِهِ الرَّغبة في التَّزَوُّدِ بالعلمِ عنهُ مِمَّا أفاض فيه الأوربيون..

وسيرقُبُ البانثيون، فلا تُهاتِفُهُ أرواحُ الملوك والزُّعماء والمشاهير، وسيشهَدُ المتاحِف، فلا تَهتاجُهَ نفسُهُ لرؤية جداريات رفائيل سانزيو ومايكل أنجلو ولوحات ليوناردو دافنشي و لعلَّه يخِفُّ إلى نافورة تريفي، فيرى الماء ينبَجسُ من تماثيلها، و قاذفي العُملات هُنالِكَ يقرنونها بالأمنيات.

أجالَ في ذهن أحدِهم مثلهُ أن يَقرأ بترارك و بوكاتشيو بلغتهما أو ما تُرجِم إليها من مؤلفاتهما باللاتينية؟

أو يَفُضَّ مُغلَق سونيتات كامباننللا وبرونو وماريني وتاسو، وأشعار سانازارو الرعويَّة؟

أثاوَرَ عزمُهُ نفسَهُ على أن يتَّخِذَ السَّبيلَ لمطالَعَةِ منزوني وليوباردي أو تَفَحُّص مثاليَّات نقد بنديتو كروتشه، ويستمتعَ تلك المتعَة العقلية الرُّوحيَّة بروايات براتوليني وإليو فيتوريني وكادا وبازوليني وألبرتو مورافيا؟

غالب الظن أن ذلك كانَ عنهُم بعيدًا، وإنَّهم معَ ذلك يتهيَّئون لمغادرة بغداد وقد قُدِّرَ لهم – وحاشا للقدرِ أن يظلِم – أن يُسافروا دونَه إلى إيطاليا، وبقيَ هُوَ ذاهلًا يترَصَّد، وكأنَّما أحسَّ بما يعتلِجُ في صدرِهِ أحدُهم، فهَمَسَ إلَيه أن لو كانَ يملكُ فائضًا من مالٍ لاستصحبَه معهم، ولقد قَصَد مِن قبلُ عمَّهُ – وهوَ سَمَيُّه – في أن يُقرِضَهُ، فتأبَّى علَيهِ، لا عن بُخلٍ؛ فما كان بالضَّنين، وهو ابن عُمدةٍ، شَبَّ على اليسار، ولقَّنه أبوهُ، كما لقَّنَ أباهُ – بسخائِه على الأضيافِ – أريَحيَّةَ البَذل، ولَكنَّهُ سَمِعَ إلى والِدَتِه ترجوهُ وتستَعطِفُهُ ألا يُعينَ ابنها على فِراقِها، وكانت مُحِبَّةً له، ضنينةً بهِ ألا ينالها حدبُه وهيَ قريبَةُ عهدٍ بافتقادِ والِدِه، ولو قَدَّرَت مدَى مَطمَحِه لبَسَطَت في عَونِهِ ما يَسَّرَ عليهِ رِحلَتَه وجنَّبَهُ كثيرًا من البلايا ووَفَّر علَيها ما تكبَّدتْهُ نفسُها حَزَنًا عليهِ، وما سَوفَ يُخرِجُها ذاهِلَةً فيما بعدُ تصيحُ باسْمِهِ في الطُّرُقاتِ، فَتُهَوِّنُ علَيها جارتُها فَجيعَتَها فيهِ، ولقد حاوَلَ أن يُقنِعها بأنَّ في رحيلِه فوائِدَ لن تُخطِئَها أو تُخطِئَهُ.

فها هو ذا والِدُه العطوفُ الذي كان أوَّلَ دُفعَتِهِ الذين تَخَرَّجوا في كلية دار العلوم عام 1939 يَقضِي بازِلًا زبدةَ عمرِهِ في تسديد دينٍ جشَّمَه نفسَه في سبيل بناء بيت ينتظِمُ أسرَتَهُ بعدَ عَودَته من السُّودان عام 1963 أو نَحوَه، و كانَ أُعيرَ وكيلًا إلى مدرَسَةٍ ثانويَّةٍ في وادي حلفا، وكانَ بعيدَ النَّظَر فرأى، وقد أكرمَهُ الله بأربعة بنين وابنةٍ، أنَّ اقتصاد البلد – مع تحَوُّلات ثورة يوليو – آخذٌ في التَّعقُّد وأنَّ مطامِحَ جمال عبد الناصِر في اليمن وسوريا وإنفاقَه المالَ عن سِعَةٍ في حرَكات التَّحَرُّر الإفريقي

وإعمالَه يَدَهُ في رصيد الذَّهب للجُنَيه المِصري حاشِدًا هِمَّتَهُ لبناء السَّدِّ العالي مُفضِيَةٌ إلى أن يتعاظَمَ المِصرِيّينَ العَيشُ ويَنزُرَ لديهم السَّكن.

(3)

ولم يكَد والده يَصُبُّ الأساسَ بقطعة الأرض التي اشتراها بوادي حوف قريبًا من حُلوان، حَيثُ السَّكينَةُ والجوُّ المحَمَّلُ بنسائم النيل قبلَ أن يزكمه دخانُ المصانع، حتى سَحَبَ السَّدُّ العالي الحديد والأسمنت فَشَّحا في السُّوق وتضاعفَت أسعارُ البناء، وأُسقِطَ في يَد الرَّجُل، وأبت عليهِ هِمَّتُه ألا يستَرسِلَ فيما عقَدَ العزمَ علَيهِ، وساعفَه الحظُّ – أو هَكذا خالَ – فعرضَ عليهِ مقاولٌ كان يَعتَدُّه صديقًا ويَنتسِبُ إليه بقرابَةٍ أن يُقرِضَهُ، فقَبِلَ وما كان له أن يرفُض، وهل يَرفُضُ الغَريق طَوقَ النَّجاةِ إذا مُدَّ إلَيهِ؟

ولم يمضِ على الأمر أسبوعٌ أو نحوه حتَّى أهَلَّ الرَّجُلُ إلى البيت يتقاضاهُ أن يكتُبَ على نفسِه كمبيالات بقدرٍ معلوم، يستنفِد من مُرتَّبِهِ الحكومي غيرَ قليلٍ، فما تأبَّى علَيه، وكان لشَرعِ الله مُعظمًا، وراحَ يُسَدِّدُ القرضَ وياخذُ نفسهُ بضروبٍ من المشَقَّة، يستعينُ بها على إيفاء بَيتِه حَقَّه، وقد تجاوَزَ السِّتّين.

فلمَّا أوشكَ الأمدُ أن ينتهيَ وكان قريبًا من السَّداد تكاءدَه الدَّفعُ شهرَين ليُلَبِّيَ مطالبَ أبنائهِ، وكلُّهم طالِبٌ وللتعليم مُتِطَلَّباتُه، فَبوغِتَ ذاتَ يَومٍ بالمحضَر يُخطِرُه بضرورَة السَّدادِ وإلا تعرَّضَ للمُقاضاة، وقد علِمَ فيما بعدُ أنَّ زَوجَ صَديقهِ هيَ التي أوعزَت إلَيه وألحَّت عليه في ألا يُنظِرَ صاحبَه فضَعُفَ لها وضحَّى بودِّ أخيهِ وآثَرَ جُنيهاتٍ – وهو الغَنِيُّ الموثِر – على مَصلَحَتِه، بل على حياتهِ كما سنَرى.. وإنهُ

لَيذكُرُ ذلكَ الذهولَ الذي اعترَى والدَهُ وذلِكَ الهَمَّ الذي بدا في روحاتهِ وغدواتِهِ، حتى إذا كانَ ذاتَ صباح صحا على استغاثة والدَتِه أن أدرِك أباكَ، ليَجدَهُ مُمَدَّدًا على سَريرِهِ وقد فقَدَ الحركَةَ وأخذَ يُحاوِلُ النُّطقَ فما استطاع، وسرعانَ ما راحَ يذبُلُ، لم يُجدِهِ ما بَذَلَهُ الطَّبيب فما انقضى الأسبوع إلا والدار موحشةٌ من فراقهِ.

وظَلَّ أمدًا حيثُما وجَّه ناظرَيه ارتآهُ بوجهِه السَّمح ونظراتِه الحانية وعَينيه اللتين مازَج فيهما العطفَ الحزمُ على نَحوٍ عجيب، وكانَ في عنفوان حياتِه أديبًا، ألَّف قصَّةً سمَّاها (إيفون والحب الضَّائع) كان على وشك أن يفوز بها بالجائزَة التي أنشأتها هُدى هانم شعراوي في ذلك الزمن الجميل الذي كان الأدبُ يَجِدُ فيهِ مَن يحدبُ على أهلهِ لولا أن الجائزَة آلت إلى الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله عن قِصَّتِه (لقيطة) والتي تولَّى توزيعَها مجمَعُ اللغة العربيَّة عام 1945.

كما ألَّف كتابين في اللغة، وشغلته أعباءُ الحياة وتقلُّبات وظيفتهِ في التعليم عن أن يطبَع منها شيئًا، فلم يُولها اهتمامَه، وضاعت نُسَخُها الخطية ولم يُتح لأبنائه الاطِّلاعُ عليها.. ذلكَ الأبُ الذي لا يكادُ يذكُر أنه عنُفَ بهِ أو أساء إليه، وكان أبوه أي جدُّه هو- عمدة البُرمبل بجنوب الجيزة - قد أخذهُ بالشدَّة التي تَخرجُ في التربيَة عن المألوف، وكان بفطرَتهِ مهيبًا جسيمًا.

تَسَلَّمَ العِمادةَ أبًا عن جد، فنشأ على العِزة، إذا مضَى في دَربٍ مِن دروب القرية ارتعَدت له فرائِصُ القوم، وقد أمنوا في جوارِه أن يَبخَسَهم باخسٌ أو يسطو على حيازَتِهم واغلٌ، فلم يكُن عجَبًا أن يُطلقوا علَيه لقبَ (سبع البُرُمْبِل) الذي سحبَ

الزمنُ في تَقَلُّبِهِ مع ما سَحَبَ لامَ بُرمبُلِهِ ليُبدلها هاءً، فيُصبحَ (البُرُمْبَه)، وكان –رحِمَهُ الله – على الرغم من نشأتِه الأزهرِيَّة ربما قارَع الكأس، فشَبَّت له في خلَجاته معَ بطشِه بواعِثُ على العُنف، فإذا لقيَ أحد أبنائهِ وعتَبَ علَيه أمرًا – عن صوابٍ أو خطأ – نالهُ منه أذًى غيرُ قليل.

ألمحَ إليه أبوه بذلكَ بأسلوبٍ أقربَ ما يكون إلى المواربَة، ولولا أنه كانَ في سياق تلقينهِ قيمةً من قِيَمِه لما أفضى إليه به؛ ذلكَ أنه رآهُ يُحاكيهِ في بُغضِه سماعَ صَوت محمد عبد الوهاب، فأرادَ له أن يكون مُستَقِلَّ النَّزعَة في الحكم على ما يسمع، وألا يُسلمَ حِسَّهُ أو يعهدَ بذهنهِ إلى أذواق أو أفكارِ الآخرين، وإن كانوا في مَقامِ أبيه، وعلَّل لهُ كراهِيَته بأنْ لا يَدَ لعبد الوهاب فيها؛ إذ كانَ أبوهُ كُلَّما جَبَهَهُ بالعنف خرجَ إلى القرية واهلَ القلب دامع العينين فسمعَ أغانيه يُرَدِّدُها المذياع أو الجرامفون في ذلك العهد وتنبعثُ من المقاهي، فالتبَسَ عِندَهُ السماعُ بالأذى، وتوطَّدَ لديهِ انفِعالٌ شَرطِيٌّ، فَحيثُ ترَدَّد الصوتُ واكَبهُ التَّأذِّي، وعلى الرَّغمِ من ذلك لم يكن يسمعُ منه إلا الدعاء له والتَّرَحُّمَ عليه.

على أن عسفَهُ به ساقهُ إلى التَّرَفُّق ببَنيهِ، لا عن ضَعف؛ فقد كانَ قوِيًّا قوَّةً مَتوارَثَةً مُؤصَّلَةً في نَفسِه، والقوَّةُ إذا قارَنَها التَّبَصُّرُ والانتصاف للحق انفَتَحَ لها إلى العَدل مغاليق، ولم تَسدُر في النِّقمَة أو يُغَشِّيها نزوع للتَّشَفِّي أو جنوحٌ للانتقام.. ويذكرُ أنَّ أباه الكريم هذا نَقِمَ منهُ أمرًا أنسته تفاصيلَهُ الآنَ كرَّات الزمان – كما يُعفِّي كُلُّ

جليلٍ على ما لا يُؤبَهُ له – فما زاد إيذاؤه إياهُ على أن وكَزَه وكزةً لم تؤلم جَسَدَه ولكنَّها آلمت رُوحهُ، أفينتهي الأمرُ ها هُنا وكَفى؟ كلَّا.

فإذا بالرَّجل – الرَّجل – يُحضرُ معه بعد عَودَتِه من العمَل مجموعةً من الكتب الأدبية، وقد كان يعلم قدرَ عِشقِه المعرِفةَ، ولا ينتظر حتَّى ينضوَ عنهُ ملابسَه، فَيدعوه ويطرَحُ أمامه الكُتب مُتسائلًا: أقرأتَ هذهِ يا محمَّد؟ هذا الأب الذي أخرَجَه منذُ الطُّفولَة الباكرَة من حصَر الرُّوح وإسار المادَّة إلى بحبوحَة الفن والعلم والأدب، فَجعلَ له – وهو ما لم تُمكِّنَه أعباءُ الحياة وتَغَيُّر نمطها بعدَما كبَر وصارَ له أبناء منِ فعله معَ أبنائهِ – اشتراكًا في عدَّة مجلَّات للأطفال.

فكان لها مواعيد يَدفَعُها فيها بائع الجرائد من تحتِ الباب، ويَتَرَصَّدُها وهو في الخامِسَة وأختُه التي تكبُرُه بعامَين، فيقومانِ ويَعدوانِ متسابِقَيْنِ إلى البابِ؛ لِيَكونَ السَّابِقُ أحظَى باستِلام النُّسخةِ المشتَهاةِ التي باتَ يَحلمُ بها فَيُفضي بها إلى أمِّه، وقد نالت قِسطًا من التعليم، فتروحُ تحكي لهُما قصَصها، فيجدانِ تلكَ اللذَةَ العقليَّة ويَخرجانِ من عالَمِ الحِسِّ الضَّيِّق إلى عالم الخيالِ الرَّحيب وتعلقُ بِذهنهِ شخوصُ الرُّسوم، فتنمو لدَيه مَوهِبَةُ الرَّسم، ويَحبُّ القراءةَ قبلَ أن يَفُكَّ طِلَّسْمَ حروفِ كلِماتها، وإنَّه لَيَذكُرُ أنَّهُ كانَ يَستَلِذُّ رائِحَةَ الوَرَقِ بِحبْرِ مطابِعِه الطَّازَج فَوقَ ما يَستَلِذُّ فَطيرَةً بِيَدِ صَناعٍ خارِجَةً لتَوِّها من التَّنُّور. وظلَّ ذلك الأمر حتَّى تخطَّى المرحَلة الابتدائيَّة، ولم يقطَعْه سفَرُهم مع أبيه إلى وادي حلفا، وكانت الصُّحف والمجلَّات تُوَرَّدُ إليها، وهو لا يشُكُّ في أنَّ مقامه في السودان حِينئذٍ في بيتٍ يُطِلُّ على النيل

يقومُ وهو طِفلٌ مُستيقظ الحِسِّ، ليَشهَدَ مَطلعَ الشَّمسِ، يُماوِجُ لعابَها موْجُ النهر الجميل ويتأدَّى إلى سَمعِه تَنَهُّدات الشَّادوف وصَيحات نواعير السُّفن تَمْخُرُ عُبابَهُ بيضاءَ كأعلامِ الثَّلج.

كانَ منبت الشِّعر في نفسِه، وربَّما عايَنَ فَيْضَ النَّهرِ يَكتَسِحُ الشَّاطئَ ويَلُفُّ البيوتَ لَفَّ الخلاخيلِ لسيقان العذارى من شرفةٍ واسِعَةٍ في بيتٍ رَحبٍ، كان يرقى إليه من عدَّة درجات لسُلَّم عريض، فأحَسَّ في روحِهِ خِفَّةَ الفرَاشَّةِ تهفو حَولَ الغدير، وإنَّه ليأسَف الآن إذ يتَمَثل ذلك البَيتَ وقد أغرقَته مياه بُحَيرَة السد العالي فيما اكتَسَحَته من مسافةٍ تبلغُ نحوَ ستمائة كيلومتر لاطِمَةً وجهَ وادي حلفا وما جاوَرها من قرًى ومناطِق زراعية ومُكَوِّنَةً أكبر بُحَيرَةٍ صِناعِيَّةٍ في العالم سُمِّيَت فيما بعد (بُحَيرة ناصِر) على إثرِ الاتفاقية التي تمَّت بين الرئيسين المصري والسوداني جمال عبد الناصر وإبراهيم عبُّود عام 1959- ليُمسي كما أمسَت المدينةُ كُلُّها مَسبحًا للأسماك وكائنات البحر خلوًا من البشَر الذين أرغِموا على الهِجرَةِ قسرًا إلى منطقةٍ نائيَةٍ في شَرق السودان منذ أواخر عام 1964 وكانت مدينةً جميلَةً تتخايلُ بها ظلال الشعر وتتماوجُ فوقها أفنان الأشجار والنخيل وتصدحُ في جنَّاتها أسرابُ العصافير، وتنتَصِبُ بها آثارٌ موغِلةٍ في القِدم، تنطِقُ عن شطرٍ من الحضارات الفرعونية والنوبية والرومانية والإسلامية.

لا تزالُ بعضُ معالِمها التي أمَّ كثيرًا منها مع والِده في رِحلةٍ نيليَّة – على الرغم من تطاولِ العهد بها – ترتسِمُ في مَخَيِّلته، ومن المشاهِد التي لن ينساها مشهد معبدي

أبو سمبل في موضعهما الأصلي قبل أن يتم تقطيعهما إلى 1036 قطعة، يبلَغُ وزنُ كُلِّ واحِدَةٍ منها ما بين 7 أطنان و 30 طنًّا، لِيُعادَ بناؤهما فَوقَ قمة جبَلٍ يعلو على مَوقعهما الأصلي وفي اتِّجاههما القديمِ نَفسِهِ بمقدار 64 مترًا، بحيث تنفذ أشِّعَّةُ الشمسُ إلى قُدس أقداسِه كالعهد بها مَرَّتين كلَّ عامٍ على يَد منظَّمة اليونسكو، وبمَسعًى من السيد ثروت عُكاشة وزير الثَّقافة والإرشاد القومي الذي لولا هِمَّته – وهو الفنان صاحب المؤلفات الموسوعية في تاريخ الفنون – لانطمَر المعبدان حيثُ رآهما ولما أمكن لعين أن تراهما على وجه الأرض.

كما انطمرَ من قبل معبد إيزيس وجوسقه الرخامي وآيات من فنون مصر القديمة مع جزيرة فيله تلك الجزيرة التي كانت واسطة عقد الفنون على جِيد الدنيا فعفَّت عليها في ومضةٍ غمراتُ المياه التي دفَّقها تشييد خزَّان أسوان، لينعاها أديب فرنسا الشهير بيير لوتي في مؤلَّفه الشَّجِيِّ "موت فيله "مناشدًا المصريِّين صيانة آثارِهم وقد شهدها وهي على وشك الغرق من فوق قارب مخرَ به عبابها المتلاطِم، ويأسى عليها شوقي، فيرثيها وقد آذَنت قصورها بالغروب:

مُشرفاتٍ على الزَّوالِ وكانت		مُشرفاتٍ على الكواكِبِ نَهضا
شابَ من حولِها الزَّمانُ وشابت		وشَبابُ الفنونِ ما زالَ غَضَّا
رُبَّ نَقشٍ كأنمَّا نَفَضَ الصا		نِعُ منه اليَدَينِ بالأمسِ نفضا

وخطــوطٍ كأنَّـــها هـُـدبُ رِيـــمٍ   حَسـُنَت صـَنعَةً وطــولًا وعَرضـا
يا قصورًا نَظَرتُها وهيَ تقضي   فسَكَبْتُ الدموعَ والحَقُّ يُقضَى
أنتِ سطرٌ ومَجدُ مِصرَ كِتابٌ   كيـفَ سـامَ البِلـى كِتابـَكِ فضـَّا

رسَت السفينة ذاتَ رَوحَةٍ قُبالة المعبدَين على الشَّاطئ فهالَهُ وإخوَتَه مرآهُما وراحوا يُلِحُّون على والدَتِهما التي كانت تقِفُ إلى جوارِهم مبهورَةً بمشهَدِهما من الخارج أن تهبط بِهم ليدلفوا إلى أحَدِهما مع الدالفين، فيشهَدوا آياته لكِنَّها تابَّت عليهم وراحت تقول: أما ترَونَ رَوعَته، فماذا لو انقطعَ النور؟ وكانت تمتَدُّ إلى داخِلِهِ أسلاكٌ تتدلَّى منها مصابيحُ كهرَبائية تُضيءُ للسالكين، فلم تَكد تُنهي تَساؤلها حتى انقطعت الكهرباء وانبعث الصُّراخ من أحشائِه وقد اجتمع في روع الصارخات تهاويل تماثيله وتمثُّلهنَّ أشباح الفراعنة مع الظلام الغامر المحيط ورُحنَ يتدافعنَ ملتمساتٍ سبيلًا للخروج مع ذويهِنَّ..

عادَ معَ أهله بالسفينة ثمَّ بالقطارِ إلى مصر، وقد نمت فيه مَلَكَةُ التَّمييز، فراحَ يَدَّخِرُ مَصروفَهُ ليَقتنيَ بنفسِه كُتبَ كبار الكُتَّابِ المِصريِينَ والعرَب والكُتُبَ المترجَمَة، وهو لا يزالُ بعدُ في المرحَلَةِ الإعدادِيَّة، وأخذ يُعالِجُ الرَّسمَ وقَرضَ الشِّعرِ في تلكَ السِّنِّ، حتى إذا وَضَعَ قدمَيهِ في المرحَلَة الثَّانويَّة شَرَعَ يَفضُّ مُستَغلقَ اللغة الإنجليزيَّة ويقرأ بها الفكر العالمي عِلمًا وأدبًا للكاتِبين بها ولمن نُقلَت كُتُبهم إلَيها، وإنَّه لَيَذكُرُ أنَّ أوَّلَ اطِّلاعه على الأدَب الرُّوسي كان مِن خلالها فراحَ يعرف تولستوي ودوستويفسكي وتشيكوف وبوشكين واقتضى منه ذلك أن يَظلَّ مُنكَبًّا على المطالعة والترجمة،

وبجواره قاموس صغير، ووزَّعَ وقته بين شَتَّى المعارف، فأعدَّ جدولًا أسبوعيًّا قسَّمَ أيامه بين الدين والعلم والفلسفة والاجتماع والأدب واللغة والنقد وعلم النفس والتاريخ والفنون والاقتصاد، وكان يقرأ ساعاتٍ مُتَّصِلةً، خشِي منها والدهُ على عقلِه، ويذكُرُ أنَّهُ انتَهَرَهُ ذاتَ يومٍ: أدودَةُ كُتُبٍ أنتَ؟ البس أُرَفِّه عنكَ شَيئًا.

واستصحَبه إلى بُرج القاهِرة ليَملأ عَينَيهِ بمَشهَدها ويرَى مُقطَّمَها وأشجارها ونهرها وأهرامها ودروبها ودورَها مِن عَلِ، وليعلم أن في الدنيا جمالًا غير جمال الحبر والورق، فما راعَه إلا تَقَلُّبُ وجههِ في الصُّحُف بأيدي الرُّكاب في قطار حلوان متَّجِهًا إلى مَحطَّة باب اللُّوق التي كانت ثمَّ زالت.

ويُهمِلُ في غمرَتِه هذه موادَّه المقرَّرةَ في الثَّانويَّة العامَّة فيُحَصِّلُ مجموعًا صغيرًا يُدخِلُهُ الجامِعَةَ بالكاد، ليتَخصَّصَ في الفنون ببلدٍ يجِدُ الناسُ فيه قُوتَهُم كفافًا ولا يُعيرونَ أهل الفنونِ اهتمامًا، وسيعملُ في تدريسها فيتقاضى منه مرَتَّبًا لا يفي بمُتطلباتِ حياتِه، حتَّى عندما يُصبِحُ موجِّهًا في مادَّتِهِ؛ فيُضطَرُّ إلى العمل مُراجعًا لُغَويًّا في دورِ النَّشر، وله من مُطالعاتِه ما يفوقُ بَوعَ المتَخَصِّصين.

ومع نَهَمِهِ الشَّديد هذا للمعرِفَة وَجدَ نفسَه مُكبَّلًا بقيود التعليم الثانوي بمدرَسَة المعادي الثانويَّة، وكانت مدرَسَة عسكريَّة بغَّضَت إلَيه الحياةَ وضيَّقت في وجههِ الدُّنيا.. كانت وسيلتُه إلَيها مترو حلوان، وكان كثيرًا ما يَعطُل في الطريق؛ لتكرار حوادثِهِ قبلَ أن تُسَوَّرَ، فيصِلُ إليها متأخِّرًا، وقد صُفَّ الطابور، ولا حيلَةَ له في التأخير، فيتَسلَّمه الناظِر هو ورِفاقه مِمَّن أتعسَهم الحظُّ، فيُخرِج ما في جيوبِهم مِن

مصروفٍ؛ فيجوعونَ طوالَ اليوم، ثمَّ هو لا يكتفي بذلك، بل يأمرهم بمدِّ أيديهم وينهالُ عليها ضربًا بعصا يزيدُ إيلامُها معَ بَرد الشتاء، ثمٌّ تُقَيَّدُ أسماؤهم في دفاتر الغياب عن ذلك اليوم، فإذا أدركوا الطابورَ - وكانوا يُدرِكونَه - انتَصَبوا تحتَ الشمس ما بينَ مدرَسَة صفا.. مدرَسَة انتباه. وكان ثمَّة مُدَرِّسٌ سَمِجٌ يقعُ أمرُه من اذُنَيهِ مَوقِعًا نابيًا حيثُ يَقول: كُل الناس صفا، كُل الناس انتباه.

ويظلُّ مباعِدًا بين ساقيه ومقرِّبَهما، ويطول الأمرُ تحت لفح الشمس إذا كان الصيف وبين لذع البرد إذا كان الشِّتاء، حتَّى تُزغلِلَ عيناهُ، فلا يَصِل إلى الفَصل إلا وقد كادَ يُغشَى علَيه، فإذا تناوبَ المدرِّسون الدخول كان مِنهم الفَظُّ الثقيل وضئيلُ الحصيلَة من العلم، وحائِزُهُ غيرَ أنه لا يُحسِنُ تَوصيلَه، وقلَّ فيهم - ولا يُنكِر - من كانَ مالِكًا أداةَ عِلمهِ طَبًّا بتبليغها.

ولم يكُن الجَوُّ يَخلو من مُشاغبات الطَّلَبة وعبَثِهم بالمدرِّس، حتى لَيَغدو الغيابُ أجدى من حصيلَة اليوم، آهِ من ذاكَ الغياب! فلَطالما كلَّفَه مع تَمَلُّصِه من عقاب الناظر أن يَعدوَ إلى ما وراء المدرَسة ليقفِزَ إليها من سورها الحَجريِّ فيركُضَ لاهِثًا فَيُدرك الطابورَ وقد تصَبَّب عرقه، وساعِداهُ يتألمان من مُصابِهما بالخدوش، ويَمرُّ اليومُ طويلًا كئيبًا، فتصدرُ عنه وهو في الفِناء مَقطوعةٌ ملؤها التَّشاؤم، مطلَعُها:

هــذا الثـَّرَى دَكَّ الحِـذاءُ دَقاقــَهُ وغـَـدًا يُشــابُ دَقاقــُهُ بــِدَقاقي

ويقول وهو في الثامنةَ عشرَةَ في مَطلع مقطوعَةٍ أخرى:

كُلَّمـــــا حَرَّكـــــتُ ذِهـــــني زَجَّ لي حـــــــــُزنًا دَفينـــــــــا

وتعتادُهُ مَوجَةُ من الوَجد وهو يقِف على محَطَّة المترو في تلك السن، فيقول:

ذَعِرَت خَطى الأنفاسِ بينَ جوانِحي ونَضَوْتُ عَن رَوضِ الشَّبابِ نَضارَتي

فَإن ابتَسَمْتُ فَخَلفَ ثَغرِيَ شِقوَةٌ وَلَئِنْ عبَستُ تَضاعَفَت لي شِقوَتي

ويجأرُ في إحدى قصائدهِ قبل أن يَبلُغَ التاسِعةَ عشَرَةَ:

يا خَريـــــفَ العُمـــــرِ تَعســـًا أُرّقـــَت مِنـــــكَ المـــــآقي

أنــــــتَ والأزهـــــارُ دَومـــًا في نفـــــــــورٍ وافـــــــــتِراقِ

ويُغالبُ دَفقَةً من الحُزنِ تعتَريهِ، فيقول:

أُحِسُّ دَبيبَ الموتِ يَمْخُرُ مُهجَتي فألقِطُ مِنهُ الطَّعمَ دُونَ تَعَسُّفِ

وأفقِدُ أنفاسَ الحياةِ وإنْ يَكُنْ علَى الصَّدرِ يَجري النَّبضُ دونَ تَوَقُّفِ

فَذاكَ انصِداعُ النَّفسِ لاحَ بِسقمها وجـُرحُ المِنـــايا الرَّاصـِداتِ بِمُرهـَفِ

ولن يَنصَرِمَ العامُ حتَّى يَئِنَّ:

تمـــُرُّ الخُطـــوبُ علـــَى مُهجـــَتي شِظافـــًا شـــِدادًا فـــلا تَنقَضـــي

أُكابـــِدُ فيهـــا الأســـَى والجـــَوَى وأجـــرَعُ مـــِن ذا الشـــَّجَى المـــبغَضِ

كُلــــومٌ إذا مـــــا تَدارَكْتُهـــــا أغـــَذَّتْ فَنــَضَّ اللغـــوبُ المِضـــِي

(4)

ويَدخُلُ الكُلِّيَّة وقد احتَشَدَت لَدَيهِ هواتِفُ التَّزَوُّدِ بالمعرِفَة وخالجَه شعورٌ بِضآلة المسعَى في الحياة بِغَير اسْتِكناه الفِكر البشَري مُنذُ بَدءِ الخَليقة وتَلَمُّس الجمال في مجالي الكَون وإبداعات النُّهى، وشَوقٌ عارِمٌ لانتهاب سَبَحات النور المنتَفِضِ جنَّاتٍ وأنهارًا وأزهارًا وأطيارًا وتِلالًا وأغوارًا وخلجانًا وبِحارًا، وإنَّ جوانِحَه لَتَضيقُ عن اصطخابِ هذه الأواذيّ المتَدَفِّعَةِ بَينَ جَنَباته ويَعسُرُ علَيهِ مع ما يَبذلُ مِن جهد في غير طائلٍ، مِن حَيثُ يَرَى، وما يَضيعُ على عتباتِ عُمرِه مِن وقتٍ – أن يَستَنطِقَ تلافيفَ ذِهنهِ أو يَبتَعِثَ خَلَجاتِ فؤادِه قصيدًا وأشعارًا، فضلًا عن أن يُلقِمَهُ زادَه مِن مجالي الحِسّ ومُهتاجِ الشُّعور، وإنَّ رُوحَه لَتَهتِفُ بجؤارِ الشَّاعِرِ القَرَوِي:

مَثِّلــوا لي هــذا الوجــودَ بشَــيءٍ أنا لا أســتَطيعُ ضــَمَّ الوجــودِ

ولم يكن يُهَوِّنُ علَيه مَحضَرَهُ بالكليةِ سوى خميلة هُناكَ كان يَستَنطِقُها معاني الجمال،وينفردُ بها فيستلهمُها سوانِح الشِّعر، وشَيءٌ آخر، ذلك قَربُ النيل، فما هِي إلا خُطواتٌ فيكونُ بِمَحضَرِه يستجلي نواضِرَه.

وهنالِكَ على وقع خطواتِه، وقد استصحَبَ معه زميلًا يتخطَّرانِ على شاطِئه ذاتَ شِتاءٍ، ستنسابُ على فمهِ عندما يُداهمهما تَقَلُّبُ الجوِّ وتَجَهُّمُ السماء قصيدَتُه التي مِنها:

الشــَّمسُ تُمعــِنُ في الســُّحُب والنــــَّهرُ ســــيَّارٌ لجــــَبْ

لَمَعَـــــــت ثُرَيـــــَّاتُ بـــــهِ		مِنهـــــا تَرَقــــرَقُ بالحَبــــَبْ
تَبـــــدو فيَمــــرَحُ ضاحِــــكًا		وتَغــــيبُ عنــــه فَيَكتَئِـــــبْ
عــــَذراءَ تَمَتَشـــِقُ الحِجـــابَ		وتَســـتَدِرُّ جــــَوَى النَّصــــِبْ
فيَظــــَلُّ يُمعـــــِنُ في الأســـَى		وتَظــــَلُّ تُوغــــِلُ في الطــــَّرَبْ
غَنـــَّتْ زُرافــــاتُ الطُّيـــــو		رِ لـــــهُ فلـــَم يجـــْنِ الأرَب
نَشــــوَى تــــَرَدَّدُ في الفضــــا		ءِ كأنَّــــــهُ مـــــَوْجٌ يَثــــِبْ
تَبـــغي الرِّيــــاحُ نــــُزاءَهُ		فَتَفِـــــرُّ مِنــــهُ وَتَقـــتَرِب
وكانهـــــَّا الأفكــــارُ تَبـــــــ		ــــرُقُ في الـــرُّءُوسِ وتَغـــتَرِبْ
أوراقُ آجــــــامٍ جَنَحــــــــ		ــــنَ مــَعَ الــرِّياحِ إلى اللَّعـــِب
أجمــِلْ بـــِذاكَ الحُســـنِ كــَم		شـــَدَهَ الجَمـــالُ فـــَمَ العَجــَبْ

وسيَعبُرُ على شاطئِه بفيلَّا أمِّ كلثوم – التي طُلِيَت باللون الوَردي، وكانَ إلَيها مُحَبَّبًا – قبلَ أن تُهدَمَ ويُقامَ علَيها فُندُقٌ باسمِها، فيَرثيها على عَتَبَتِها يَومَ وفاتِها ذاتَ يومٍ من فبراير عامَ 1975 بِقصيدَته التي مِنها قَولُه:

إذا مــا تَلــَتْ أُنشـــودَةً عَبقَرِيـــَّةً		سَقَتها نِياطَ القلبِ والأنمُلَ العَشرا
كـأنَّ دُفوقـًا في الجـَوارِحِ رُقْرِقـَتْ		شِعابُ قلوبِ المنصتينَ لها مَجرى

وسيرثي طه حُسين قبل ذلك بعامَين في نهاية أكتوبر من عام 1973 في قصيدةٍ ينمُّ مطلعُها عمَّا كان يَجِدُهُ مِن مُكايَدَة بعضِ رِفاقِه إيَّاه؛ لاستلفاتهِ الأنظارَ بما حَظيَ بهِ دونَهم مِن موهِبَة الشَّعر إذ يقول:

صَخَدُ القلوبِ على القلوبِ طَخاءُ ولَظًى تجدِّدُ رَوْقَهُ الكأباءُ
ألقى علَيَّ الحاسِدونَ شُحوبَهُم لهُمُ على ذي تُدْرَإٍ إلماءُ

ومِنها قولُه:

أيَّامُهُ اللائي شَبَبْنَ على الشَّجَى باهَت بهِنَّ على الشَّجى الضَّرَّاءُ
يَمْسَحنَ أوضارَ النفوسِ سَواكِبًا مِنْ حُسنِهِنَّ وإنهُنَّ بُكاءُ

وسَيظَلُّ غريبًا مُكتَئِبًا طوالَ السنواتِ الأربَع التي يقضيها في الكليَّة، فإذا ساءَلَته زَميلَة ذاتُ دلٍّ وهي تَميسُ برأسَها في ظَرفٍ، ودَّ معَهُ لو يُرَبِّتُ خُصلاتَها كما يُرَبِّتُ شعرَ هِرَّةٍ صغيرَة وأن يستودِعها أحزانَه: أما تزالُ تنظِمُ الشِّعر؟ قرنَ الموتَ – وهو راحَةٌ في زَعمِهِ مِمَّا يُكابِدُ – بِرَدِّهِ:

تقولُ أما زِلتَ تَنظِمُ دُرًّا فَقُلتُ القَريضُ وليدٌ معي
إذا ما طَواني الرَّدَى والثَّرَى فَشُدِّي الرِّحالَ إلى المضجَعِ
وخُفِّي لِقَبرٍ حَوتهُ القبورُ لَدَى لاغبٍ قطُّ لم يَرْبَعِ
ونَدِّي بخَدَّيكِ صُمَّ الصُّخور لعَلَّ منَ الرَّوْحِ أن تَسمَعي
نَشيدًا خَفيضًا مَهيضَ الجَناحِ فَتَرُدي وأُردي معًا أدمُعي

وتشرَبُ زميلَتُه مشروبًا من كوبٍ، فتستبقي نِصفَه، وتشرعُه في وجهِه قائِلةً: هل لكَ في شُربه يا محمد؟ فيتناولُه، ويرتَجِل:

شـَـرِبتُ الشـــهدَ مـــِن كـــأسِ ســـُلافَةَ رُوحِهـــا طـــَرَبُ
رَوَتْ فاشـــــتَقْتُ ســــــقيَتَها وَوَجـــْدُ القَلـــبِ مُنســـَكِبُ

أبدًا ذلِك الوجدُ الذي سيظَلُّ رَفيقَه في صَحوِهِ ونَومِه مَدَى عُمرِه، والذي سيستَحيلُ إلى دُعابَةٍ تُلازِمُه، يراها الجاهِلُ عَبثًا وخلُوَّ بال، وما هِي إلا سُخرية من الشَّدائِد وتَخَفُّف من الغَمِّ والهَمِّ وضِنَّة بالحَياةِ من أن يَبتَلِعَها الوَجَل وسَيَذُبُّ ذلكَ عن نَفسِهِ، كأنما يَدفَعُ تُهمَةً، فيقول:

جاهـِلٌ قـَدْ شـامَ مـِنِّي بَســمَةً فــانبَرَى يَلحــو كـذا خلـوُ الشـَّكَاه
لـَو جـَلا بالقلــبِ عَينَيــهِ لمــا نالَ بالظِّنـــَّةِ أنْضـــاءَ الحَيـــَاه
تِلكـُمُ البَســمَةُ دَمْعــاتُ شـَجًى ضـَلَّت المِســعَى فـَذَلَّتْ لِلشـِّفاه

وتنقضي السنون، فلا يَحيد بعد رُبع قرنٍ عن طبعهِ، وينظِم:

أُولِي النـَّـدِيَّ مَراحـًا غـَـيرَ ذِي مـَـرَحٍ   وعاصِـفُ الهـَمِّ ضـارٍ في تجاليـدي
وألتقي الصَّحبَ طَلقَ الوَجهِ ذا لَهَفٍ   جَمِّ النُّزاءِ كَظيمِ الوَجْدِ مَحشودِ

وكأنما قائل ذلِكَ لم يسمَع لقول المتنبي:

تَمَرَّســـتُ بالآفـــاتِ حـــتَّى تَرَكتُهـــا   تَقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعرُ

أو لم يَرِد على سَمعِه قَولُ ابن الرُّومي:

إنَّ مـَن ســاءَهُ الزَّمـانُ بشـَـيْءٍ   لأحـــَقُّ امـــرِئٍ بأن يَتَســـَلَّى

ستَجثمُ على نَفسِه سَنواتُ دِراسَتِه؛ بما تَحولُ بينه وبين شَرَهِهِ للقراءَة وتَطَلُّعِه إلى الإبداع، فيجوبُ أرجاءَ كُلِّيَّته كالأسير، ويَنفُثُ فيها قَولَه:

أُصارِعُ الوَجَدَ لَيسَ الوَجدُ يُذعِنُ لي   وأقحِمُ العَقلَ حتَّى لاتَ مُقتَحَمِ
أمضي فَتَلتَفِتُ الجُدرانُ ساخِرَةً   مِنـّا وَتَجْتَمـِرُ الغـَبراءُ بالقَـــدَمِ
تِلكَ الرُّسومُ أبَلَّتْ مِن مَوَاجِعِها   وذا الرَّغـامُ سـَرَت أوصـابُهُ بـِدَمي

ويُرسِلُ إلى زميل رِسالَةً في أكتوبَر من عام 1974 فيقول:

"أكتُبُ إلَيكَ أيُّها الصَّديق، وفي النَّفس كمَد وضِيق، وفي العَقل مَطاعِنُ ومَضارِب، وفي القلبِ لَوعَةٌ وحَزَن، مُحَصِّلُها في النِّهايَةِ – إن تَكُن ثمَّةَ نِهايَةٌ – عناءٌ عانٍ وشِقوَةٌ شَعواء لا يقطَعُها إلا خَفَقانُ الأمَل وتَلَمُّسُ السَّلوى عَدوًا وَراءَ الخَيال، وغايَةُ ما

يُخشَى مِن حالٍ كَتِلكَ أن يَبتَلِعَ الوَهمُ وَيَقتُلَ الرُّكونُ إلى السَّلوى الرَّغبَةَ والعزمَ فَيَفترَ السَّعيُ أو لا يكون، وفي فتورِهِ كَرَّةٌ على الأمَل، وهوَ –كما تَعلَمُ– الحافِزُ إلى الحَياة والدَّافِعُ إلى الضِّنَّةِ بها على الموْت.

"كأنَّ الدُّنيا قد وَقَفَت الاحترامَ على حاملي الشَّهادات وأصحاب الوَظائف، وكأنْ لا مكانَ للمواهِب لِكَسبِ فَضلٍ، ولا مَندوحَةَ لِمَن يُريدُ العِزَّةَ فَوقَ البَسيطَةِ إلا أنْ يَسجُرَ الجَبِيَنْنِ بِذواتِ الرَّنين، فَنحنُ لَمَ نعْدُ الصَّوابَ إذَن، حَيثُ نقول:

كأنمَّــا المــالُ عَقــلُ العــابِثينَ بهِــا والعَقـلُ مـالُ ذَوي الإقـدامِ والشَّـمَمِ

ولعلَّكَ قائِلٌ: إنَّ فُلانًا أو فُلانًا من الأدباءِ ورِجالِ القَلَم قد التَفَتَ إلى الكِتابَة غِبَّ التَّخَرُّجِ مِن هذه الكُلِّيَّة أو ذلِك المعهَد. ولا يَخفى أنَّ الكاتِبَ قد ابتُذِلَ وتَواضَعَ في تَعريفِهِ العامَّةُ والخاصَّةُ وندرَ بين الكُتَّابِ مَن عَظُمَ شَخصُه وقَوِيَت على حَملِ القلَمِ كَفُّه.

وجُل بِطَرفِكَ أيها الصَّديق بينَ عُظماءِ أصحاب الأقلام في العالَمِ ونَقِّب عن حياتِهِم وأهدافِهِم وما اتَّخَذوا لها مِن مَساعٍ، هُنالِكَ سترَى أنَّ طعامَهُم إنَّما هو طعامُ الفِكر والرُّوح، وأنَّ الكَثرَة الكاثِرَةَ فيهم من الزُّهادِ قد كانَ كافِيَهُم ما يُذهِبُ الرَّمَقَ، بل أنَّ منهم لَمَن فَرَضَ على نَفسِه الزُّهدَ فَرضًا كرَهينِ المحبَسَيْن أبي علاء، ومنهم من نظَرَ مِن مَوضِع غِناهُ إلى حالِ الفُقراءِ فَرَقَّ لهم، وانعَكَسَ على تَصَرُّفِهِ اقتِناعُهُ بالغَبْنِ الواقِع عليهم، وأمامَكَ تولستوي يَصنَعُ الأحذِيَةَ للفلَّاحين ويُحاوِلُ أن يُوَزِّعَ عليهم الأراضي، وهو المالكُ الثَّرِيُّ، وفيهم مَن بدأ فقيرًا في وَسَطٍ تَختَنِقُ فيه المحامِدُ ويُفتَقَرُ

فيه إلى الخُلُقِ الرَّفيعِ فما عَلِقَ بِه شيءٌ؛ بما دَفَعَ إلى نَفسِهِ ودَفَعَ نفسَهُ إليه مِن مَحصولِ الفِكرِ والشُّعور.. ".

ويَستَطرِدُ إلى مَوقِفِ والده منه، وقد كانَ ألحَّ عليه في استكمالِ دراسته رأفةً علَيه من تقلُّبات الزمان وتأمينًا لمستقبله، وهو ما سوفَ يرى أنه كان سدادًا منه، بعدَ أن يُحال بينه وبين الانتفاع بشهادته في الدول التي قُدِّر عليه أن يُقيمَ فيها كالأسير سبعَ سنواتٍ مُتتاليات، فضلًا عن كَونه أكبر إخوانه الذكور وخشيَة والده من أن يتأسَّوا به، فَيَتَفلَّتوا من تكملة التعليم، فيقول: "والحَقُّ أنَّ مِن حقَّنا علَيه أن يرعانا ويُيَسِّرَ لنا راحَةَ البال، فلا سبيلَ إلى العُنف، وهُو رابٍ عليه، ومِن حَقِّه عَلينا أن ندينَ له بالطَّاعَةِ ولَو نَزَلنا في سبيلها عن الرَّاحَة، فلا سَبيلَ إلى التَّشَذُّر وركوبِ العُنف بالمخالَفَةِ والعقوق، وقد يئِسنا من نزولهِ على إرادَتِنا، فإنَّا باقون، واللهُ أعلَمُ بوَجهِ الحَقِّ في أمرِنا، وإنَّا إلَيه جميعًا راجِعون ".

ولن يُلَبِّثَ المَرَضُ المداهِمُ أباهُ، فما يكادُ يَتَحَرَّجُ في كُلِّيَّته، حتَّى يُعاجِلَه الموتُ، فيُرسل إلى خالهِ يَبُثُّه فَجيعَتَهُ فيه: "ما عَلِمتُ بفداحَةِ الرُّزءِ ولَوعَة المنِيَّة حتَّى رَأيتُ أبي يَفيضُ رُوحُه الكريمُ أمامي أراه رأيَ العين لاهِثًا وهو الثَّابِت إزاءَ الخطوب.. يقضي ونحنُ إلى حدبهِ في حاجَةٍ وإلى رَحابَةِ صَدرِهِ في عَوزٍ شديد.. أكذا يكونُ الموت أيُّها الخالُ؟ أيَختَطِفُ الموتُ ما يبني المرءُ في سنينَ عِدَّةٍ ويُطفئُ أنفاسَهُ كما يُطفئُ البحرُ الزَّبَدَ، فيَمُر على الدنيا خيالًا كأن لم يَكُن؟ ".

مضى الوالدُ وبَيانُه لا يُطاوِعُ فِكرَهُ، وقد أخذَ الكلامُ يَنسَحِبُ مِن فِيهِ كما يَسحَبُ الجَزرُ الماءَ من الشَّاطئ حتَّى غاض، ونَزَلَت علَيه السَّكينَةُ الأبدية فلفظَ أنفاسَه لاهِثًا ونحنُ نَنظُر إلَيه مُحَدِّقينَ كاتمي الأسى مُهَدهِدي الدَّمع رابِطي الجَأش، ولو نَطَقَت الصدور لما انطلَقَت غيرَ آهَةٍ مُدَوِّيَةٍ، ولو أُريدَ لها أن تَنطبِع على اللَّوح لما كانت غيرَ بُقعَةٍ من الدَّمِ حَمراءَ قانِيَةٍ، وكيفَ لا يكونُ ذلك، والمصابُ عَزيزٌ، ما عَهدنا مِنه إلا الجودَ والكرَم وسلامَة الخُلُق ورَحابَة القَلب وسُموَّ النفس ويقظة الضَّمير ورِفعَة الوِجدان؟

لطالَما راوَدَهُ خاطِرُ أن يِشهدَ وفاةَ أحد والدَيهِ، ففَزِع له وتمنَّى على اللهِ ألا يكونَ عِندها بمحضَرِهما، ولكن ها هُو يقِفُ فيَشهَدُ أباهُ في النَّزع، فيَوَدُّ لو يَفتَديه، وينشد:

رِفقًا بقلبي لا أصابكَ فاجِعٌ ... أبتاهُ مَهْ ماذا تراهُ دَهاكا
كُنْ لي أجِبْ أطفِئ بصَوتِكَ مُحرَقًا ... ما بالُ عَطفِكَ لا يحُرِّكُ فاكا
الذِّهنُ غافٍ والهلاكُ مُحَدِّقٌ ... شَرِهٌ وقد تَرَكَ النُّخاعَ مُكاكا
أقثامَةَ الغَيْبِ استَقَلَّ فطائِفٌ ... بالمودَعينَ صفائِحًا ودِكاكا
أوَ مُرسَلٌ لكَ بالمنِيَّةِ راصِدٌ ... حتَّى إذا اخترِم العَزاءُ دَهاكا
جَسَّدتَ طَعمَ الموْتِ حتَّى ذُقتُهُ ... ذَوقَ اللَّظى وسَرِطتُهُ أشواكا
هالوا عَلَيكَ التُّربَ ثَمَّةَ وَيحَهُم ... أوَ يَجرِفونَ على السَّنا دَكداكا

ويسبقُ ذلِكَ قولُه:

لِلَّهِ صَدْرُك ما أرَقَّ ضلوعَهُ ... خَفقانُهُ الأسنى طَهورُ سناكا

يا ماضِيًا في الفَضلِ ليسَ يَفُلُّه ... غَبنٌ ولا تُوهي الخطوبُ شداكا

يا راجِحَ العَقلِ السَّديدِ إذا يُرَى ... جُلُّ الأنامِ مُجَمَّعينَ رِكاكا

تُعيي حَصافَتُكَ الرِّفاقَ فَيَرتَضي ... مَضَضَ الوُجومِ منَ الذُّهولِ أولاكا

أيُّ افتِقادٍ فيكَ أيَّةُ نَخوَةٍ ... أيُّ اتِّقادٍ أيُّ نُبلٍ ذاكا

ثُمَّ ها هُوَ يَجلِسُ على سرير الموتِ إلى جوارِ أمِّه التي ظلّت رَهينَتَهُ مُتُصَبِّرَةً نحو خمسَةَ عشرَ عامًا، فَيُقَبِّلُ جبينها ليَسمعها هَمِسُ قبلَ النَّفَس الأخير: قَبَّلَتكَ العافية. فَيجهَش قائِلًا:

"قبَّلَتكَ العافيةَ" ... قُلتِها عِندَ الغُروبِ

والرَّدى يَستَلُّ مِن ريَّا ... كِ أصداءَ الوَجيبِ

جازَ يا أُمُّ اصطِباري ... لَوعَةُ الوَجدِ الصَّبيبِ

والذي أُخفي مِنَ الأحـ ... ـزانِ يُزكي مِن لهيبي

يا رَواحًا نَدَّ عَن سُحـ ... ـرَيَّ بالقَبرِ الرَّواحُ

غالَهُ الموتُ ولَو أبـ ... ـقاهُ لانجابَ اللَّواحُ

أُمَّتا يا رَحمَةً في الأ ... رضِ بثَّتها السِماءُ

لَيْتَ لي مِنها لَمامًا ... بَعدَ أن حَمَّ القضاءُ

يا غِيــاثي يــَومَ يَطمــو الضــِّـ ـــــــيقُ أيـــــنَ المهـــــرَبُ

ضـــاعَ مـــِنْ كَفِّـــي قِيـــادي ضـــــاقَ مـــــِنِّي المذهَـــــبُ

ثُمَّ يقول:

عَبقـــَريُّ الكـــَونِ ســـاجٍ لَيْــــــــتَهُ لَمَ يَنــــــــطِقِ

جِنــــَّةُ الأعـــيُن في الأشـــــ ـــــجانِ فقــــــدُ الألَـــقِ

ويُردِف:

وَيلَتــا مــِن حُرقــَةٍ في القلــ ـــبِ يَعصـــيها فَمــــي
زادُهـــا ذاتـــي وأضـــ ـلاعـــي ومَســـراها دَمـــي

فيقول:

ذِكريــــاتٌ لَمَ يَعُـــد لي مِنـــكِ غــَيرُ الذِّكريـــاتِ
لَيــتَ مــا أفضــَى مــِنَ الأيــَّ ـــامِ فـــي ظِـــلِّكِ آتِ

ويسترسل:

أيــنَ مــِنّي مَنطــِقٌ كالســِّ ـــحرِ في الجُلــَّى جَهـــيرُ
وَجَبيـــنٌ ألمــعيٌّ إذ نبـــا الأيْـــدُ نَصـــيرُ

فيقول:

لَيــتَ شـِعري مــا الــذي أو غـــَرَ بالصَّـــقرِ الهَـــزارُ
أو تـــُرى مــا يَبتغـــي مِـــن ضـــَحوَةِ الشَّـــمسِ القَتـــارُ

ثمَّ يَقول:

هــل تــُرى أشــتَفُّ عِنــدَ النــَّ ـــبعِ نَفـــحَ الزَّهَـــرِ
أو تـــُرى أسمـــَعُ في الأســ ـــحارِ همـــَسَ الشَّـــجَرِ
وأعـــي وَمـــضَ العَشِـــيَّا تِ وسَـــجوَ المِغـــرِبِ
واختلاجـــاتِ الســَّنا في النــَّ ـجـــمِ بـــينَ الغَيهَـــبِ

والـــــرَّوابي الخُضـــــرُ ريَّا الــــدَّو حِ هـــــــــــل أجتـــــــــــــــالها
بالنَّـــــــدى مُخضـــَلَّةَ الأكـــــــ ــــــــــنافِ مُـدهامَّاتُـــــــــــــها

فيدعو:

رَبِّي أســــكِنها ضـــِفافَ الخُلـــــ ــــــــــــدِ إنَّا مؤمِنـــــــــــــــونا
فـــــازَ أهـــــلُ البِـــــرِّ بالعُقـــــ ــــــبَى وأكـــــْدَى المبطِلونـــــــا

والآن وقد آبَ إلى نفسِهِ بعدَ أن أفرَدَهُ أصحابُه، فلينظُر فيما يُقَرِّبُ إليه ما اختَطَّهُ مِن نَهج، أوَّلُه عِندَه أن يعملَ؛ ليستجمِع من المال ما يُعينُه على إمضاءِ عزمِه، وأيسَرُ سبيل وأعوَدُه علَيهِ بالنَّفعِ أن يتعاقد مع وزارة التعليم للعمل على تدريس الفَن، ذلكَ الذي اقتضى منه أن يَخدِشَ زهرَة عُمرِهِ ليحصُل على شهادَةٍ تؤهِّلُه لكسبِ القوت.

فكان أن نَفذَ من سنوات التَّحصيل مُضَعضَعَ النفس، أرغبَ ما يكون في الرَّوح والتفريج، وباعِثه، بل بواعِثُه، إلى استجلاء الجمال في الكون واستنطاق إيحاءاتِه والخُلُوِّ إلى مناجاتِه ومطارَحَتِه الشِّعرَ حاشِدَةٌ بين جنبيه، ورَغبَته في تحصيل المعارِف الإنسانية واستطلاق لِسانه بالفرنسية وتطويعها للنهل من ثقافتها عارِمَةٌ مُلِحَّة، فليستخرِج من الحقيبة شهادة البكالوريوس في نُسختها العربية، وليُرجئ استخدامَ النسخة الفرنسية أو الإنجليزية - وقد كان ترجمها إليهما في القاهرَة - إلى إبَّان الحاجة إليها إذا أعانهُ اللهُ بالتَّيسير.

جرَّ حقيبَتَه المثقَلَةَ وكشَفَ عنها غطاءها وراحَ يُفَتِّشُ عن كتابَين كان قد دسَّها في أطواءِ صفحاتهما، حتَّى أعياهُ أن يَجِدَهُما، ثمَّ أخَذَ يُنقِّبُ عنها في كتابٍ وراء كتاب وينفِضُ الوَرق؛ لعلَّها تكون عالقةً في تلافيفِ أحَدِها، حتى أتى على الكُتب جميعها فلم يقف لها على أثَر.

(5)

أسقطَ في يده، فها هوَ يَفتَقِدُ أحجى أدواتِهِ بأن يستَثمِر الوقتَ في تحصيل أوفى قدرٍ منَ المال يُعينهُ على الخَوْضِ في رِحلَتِهِ من ناحيَة وعلى أن يتَكَسَّبَ بأقَلِّ السُّبُلِ كَدحًا؛ لاستئناف طَريقِهِ، مِن ناحِيَةٍ أُخرَى، وما دارَ بِخَلَدِهِ أن يَستَنزِفَ طاقَةَ جَسَدِهِ ويُهدِرَ ماءَ شَبيبَتِه على هذا النَّحوِ العنيف الملغِب الذي سَيَطْعَمُ مِن روحِه فَوقَ ما يَلتَهِمُ مِن جَسَدَهُ وسَيضطَرُّه إلى مُخالَطَةِ الطَّبَقَة الدُّنيا مِن العِراقِيّين التي أملَتْها عَلَيهِ أعمال تُشاكِلُها، حَيْثُ لا مُسَوّغَ مِن شهادَةٍ جامِعِيَّة لِأن يُخالِط منهم مَن يُجارونَهُ في الشُّعور أو يُشارِكونَهُ في الفِكر، وسيَصبِغُ ذَلِكَ مِنظارَهُ الذي يَرصُدُ بِهِ طِباعَ القَومِ وإن حاوَلَ ما استطاعَ التَّجَرُّد وسيُعينُ استِهجانَهُ إياهم أن سَيجِدهُم أخلاطًا متنافرين من نسل أجدادهم الأشوريين والصَّابئين واليزيديين وأجناسًا شتَّى من الأتراك والإيرانيين والأكراد.

وقد كانَ أن ساقَهُم إلى بغداد ذلكَ الفيضان الجارف لنهر دِجلة والذي لَطَمها عامَ 1831م لطمَةً قوَّضت منها المنازل، وحالت دونَ أن يتسعَ ما بقيَ مِن سُفُن لأفواج الفارِّين من المدينة وابتَعَثَت أعمالَ النَّهبِ والسَّلب، وأطلَقَت خيول الوالي داود باشا هائِمَةً في الشوارع ونَفَضَت المارَّةَ مِنها، وعاضدها طاعون مُبير تَحَدَّرَ إليها مِن تَبريز كاسحًا في طريقهِ كركوك فالسُليمانية فسائِرَ كُردستان، وراحَ يُعمِلُ سِنانَهُ، فَيَحصُدُ النفوسَ حَصدًا ذريعًا بلغَ بعدَ نِصف الشَّهر سبعَةَ آلافِ نَسمَةٍ، ثمَّ بلغَ في كلِّ يومٍ من الأيام السِّتَّةَ عشَرَ التي تَلَت ذلكَ ما بينَ ألفٍ وخمسمائةٍ إلى ثلاثَةِ

آلافِ نسمَةٍ إلى أن وصَلَ عدَدُ الموتى إلى تسعَةَ آلافٍ في اليوم الواحد، وتَكَدَّسَت الجُثَثُ في الطُّرُقات والأزِقَّة والأسواق تعبَثُ بِها الكلابُ ويعجز الأحياءُ عن دفنِ كثيرٍ منها فيُلقونَهُ في النهر، حتى أُطلِقَ على سوقٍ تبيعُ القماش والشَّراشِف في الشُّورجَة ما بينَ شارعَي النهر والرَّشيد (سوق الجايف)؛ لامتلائِها بالحِيَف وتَفَشّي روائحها إلى دَرَجَةٍ لا تُطاقُ.

ويندُرُ الطعامُ ويسودُ الوجوم ويَحلّ الصَّمتُ المرَوّع مَحَلَّ العويل؛ لإلف الناس الهلاكَ وكثرة من لم يجدوا مُعولًا علَيهم، فإذا أذنَ الله بالفَرَج سمِعَت أصواتَ المؤذّنينَ تدعو إلى الصَّلاة وراحَت الحرَكَةُ تَدِبُّ من جديدٍ في المدينَةِ وقد اجتَثَّ الطاعون والفيضان نحوَ ثُلُثي أهلها.

وما كانَ هذا بالفيضانِ الأوَّل، فقد سبقَتهُ سطواتٌ لفيضانات، ما بين فيضان عام 1159م في العهد السلجوقي وفيضان عام 1356م الذي خرَّبَ معظمَ مَحلَّاتها بعد نحوِ قرنٍ من احتلالِ هولاكو في العهد المغولي، وفيضان عامَ 1633م الذي غمرَ الجانب الشرقي من دِجلَة بعدَ استيلاءِ الصَّفَوِيّينَ عليها مرَّةً أخرى مِن أيدي العُثمانيّين، ثمَّ طُغيانه عليها وإلحاقه أبلغَ الضَّرَرِ بها في عهدِ أولَئِكَ مرَّتين حتى يقعَ فيضان 1831 لتتلوَهُ فيضاناتٌ أخرى.

كانَ مِن شَأنها أن أهدَرَتْ تَعاقُبَ نَمَطٍ مُوَحَّدٍ من البنَّائينَ الذين انقَرَضَت مِهَنُهم بِهلاكِ أربابِها، وضاعَ الطِّرازُ المِعمارِيُّ المُوَحَّد الذي انتظمها منذ بناها الخليفةُ العبَّاسي أبو جعفر المنصور بين عامَي 145، 149 للهجرة في مَطلَع القرن الثَّامن

الميلادي، معَ توالي هِجرَة الأخلاطِ إليها، وكانَ أنشأها على شَكلٍ دائِريٍّ غيرِ مسبوق في تخطيط المدُن الإسلامِيَّة؛ ولِذا كانَ مِن مُسمَّياتِها (المدينة المدَوَّرَة) في حين كانَ مُعظَم المدُن إمَّا مُستطيلًا كالفُسطاط، وإمَّا مُرَبَّعًا كالقاهِرَة، وإمَّا بَيْضاويًّا كصنعاء.

يقول ياقوت الحموي في مُعجم البلدان:"ووَجَّهَ المنصور في حَشر الصُّناع والفَعَلَة من الشَّام والموصل والجبل والكوفَة وواسِط، فأُحضِروا، وأمَرَ باختيار قومٍ مِن أهل الفضل والعَدالة والفقه والأمانة والمعرِفَة بالهندسة، فجمَعَهم وتقَدَّم إليهم أن يُشرِفوا على البناء".

فها هُنا ما يُنبئُ عن استِهداف نهجٍ واحِدٍ مُتناسِقٍ في البناء آل بعدَ تتابُع النكبات إلى ما وصَفَهُ أمين الرَّيحاني في (قلب العراق) عام 1922 وهو ما بقيت آثارُهُ إلى اليَومِ بِقولهِ:"أما بغداد فقد بناها أجداد هذا المزيج من الشُّعوب بعدَ نكبَة سنة 1831 كما بنى مَن تقدَّمَهم بعد كُلِّ نكبَةٍ من نكباتِها. بنَوها كُلٌّ على ذَوقِه وحسبَ اقتِدارِه وعَمَلًا بالأحوال القاهِرَة، بدون تصميم وبدون اتِّساق وبدون نظامٍ مدَني يرعَونَه أو أوامر مجلِس بلَدي يلتَزمونها. بنَوها على عَجَل، كأنَّهُم كُلهم مُسَيَّرون بِحاجَةِ يَومِهم، أو مُهَدَّدونَ بِكارِثَةٍ أخرى".

ويَستَطرِد:"فنشَأَت من الجُدرانِ المستَقيمَة جُدرانٌ مُعوَجَّة، وعَلَت السُّطوحَ سطوحٌ، ودَرَجَت الأدراجُ من النَّوافِذ، ولاذَت الأواوينُ بغُرَف النَّوم، واشرأبَّت الشُّرُفاتُ إلى الشُّرُفات، بل امتَدَّت بعضُها إلى بعض، فتوَسَّعت البيوت وتضَيَّقَت الجادَّات،

فصارَت تُدعَى بِلُغَة البغدادِيّين (دربونات) ولهذه الدربونات مِن الشّرُفات المتعانِقَةِ فَوقَها سقوف ظَليلة".

ويقول:"وفيها كذلكَ التَّناقُضاتُ المدهِشاتُ المكرِباتُ، فهي قديمَة وهي جديدة، وهي مُتراصَّة وهي مُبَعثرَة، وهي مدينة وهي بدَويَّة".

ويقول زكي مبارك في مُؤلّفِه (وحي بغداد) عام 1938:"كنت أفهم جيدًا أن بغداد أدَّت واجِبها بِعنف يومَ شاءَ لها الطَّالِعُ السعيد أن تُسيطرَ على المشرقَين والمغربين، وكنتُ أفهم جيّدًا أنها في غفوَة الراحة بعدَ ذلك النِّضالِ العنيف، فلم يَكن يخطرُ ببالي أن أراها كالقاهرة أو باريس، ولكني مع ذلك كنتُ أنتظِر أن أجِد آثارَ المدينة التي أقامها العبَّاسيُّون، وهنا أصَرّحُ والأسى ملء الفؤاد أن آثارَ الغطاريفِ مِن بني العبَّاس لم يَبقَ منها إلا رسوم ضَئيلَة هي في مغازيها ظنون في ظنون".

ويؤكد:"وقد سألتُ عن السبب في ضَياع تلك الآثارِ فحَدَّثوني أنَّ نهرَ دِجلة الغادِر الصَّوَّال كان يطغى من حِينٍ إلى حِين، فيطمس ما يشاءُ من القصور والبساتين، وقد شاءَ له عدوانُه أن ينقُلَ بغدادَ من مكانٍ إلى مكان، فهي اليومَ في بُقعَةٍ غير البُقعة التي اختارها المنصور، على أيَّامِه السلام، فإن شِئتُم وصفَ بغداد القديمة فارجعوا إليها في الكتب، فقد كان المؤلفون القُدماءُ يُدرِكونَ بغَيرِ وعيٍ صَريح أنَّ مدينتَهم سيأتي عليها يوم لا يَعرفها فيه غيرُ قُرَّاءِ الأخبارِ والأساطير".

على أن بغداد ستشهد طفرةً غير مسبوقةٍ في العمران بعد وفاة الكاتبين، وبما يُمكنُ تحديدُ مبعثِه بعام 1956 بعد أن تمَّ بناء سدِّ سامراء التي تقع شمالها بمقدار 125

كيلومترًا على الضفة الشرقية لدجلة في محافظة (صلاح الدين)، فتتَّسِعُ شمالًا وشَرقًا وغربًا، كأنما تقتصُّ من غمرات ماضيها، فتضُمُّ بلداتٍ مثل الأعظميَّة من الضَّفَّة الشَّرقيَّة والفاطميَّة من الضفَّة الغربيَّة، وستُصبحُ مساحَتُها بعدَ أن لم تكُن تزيدُ في مطلع القرن العِشرين على سِتَّة كيلومترات مُرَبَّعة، وبعد أن يُغادرها بسنواتٍ أو بعد أن تغادرَه هي على الأصَحِّ، نحوَ ألف كيلومترٍ مُرَبَّع مُتَدَّةً طوليًّا عام 1995 على ضفَّتي النهر، وقد كانت إبانَ وجوده بها نحو 865 كيلومترًا.

فوضعَ حُكَّامُها – على الرغم من جَبروتهم – قانونًا يوالي تصميمَ المدينة ويَرصُدُ تطَوُّرها حتى عام 2000 رُوعِيَ فيه المحافَظة على المواقع التَّاريخية والمساحات الخضراء ومُلاءمَة الزِّيادات المتَوَقَّعة في أعداد السُّكان، وذلك ما شهدَ مسارَه بنفسه وأدرجَته المقادير في مكِنةِ تدبيره ترسًا صغيرًا لا يكادُ يُرى، ومعَ ذلكَ فقد كانَ يرَى الكثير، فما نبَذته وتخلَّت عنه وردَّت لهُ بلاءهُ نُكرًا إلا وقد قال لصاحب له في الكدح: إن هذا البلد يُساقَ إلى الهلاك بسطوة حُكَّامه وسوء طباع أهله، ولا يَغرُركُ ذلكَ النَّماء اللاهث وتلك الوثبات العجلى إلى العمران؛ فإن كُلَّ تعمير للمادَّة لا يرعى سُمُوَّ الخُلُقَ وتوثُّب الروح إلى ابتغاء المثُل العليا مُفضٍ إلى البوار، وعمَّا قليل سنرَى.

وهو ما آلَ إليه أمرُه بعد شنِّ صدَّام الحرب على إيران عام 1980 لتستمرَّ مُشتَعِلَةً ثماني سنوات، ثمَّ لا يكاد يخبو أوارها إلا وقد أوحلَه بمطامِعه في الكويت عام 1990 وتوَعَّده الأمريكان بإعادة بلده إلى العصور الوسطى، وكادوا يُوفون فصبُّوا عليه

جاحمَ نيرانهم جوًّا وبحرًا وأهدوا إليه رُسُلَ الموت مُحَمَّلةً على قنابِل وصواريخ لا تُفرّق بين شابٍّ وشيخٍ وطِفلٍ ورضيع ولا بين عسكريٍّ ومدني، ولا ترعى في نهضته إلًّا ولا ذمَّة.

ثمَّ داسوا عليه بأحذيتهم العسكريَّة عام 2003 وأذاقوا شعبَه مرارَة العسف وذُلَّ الإسار من أجل عيون أحفاد القرَدَة والخنازير. ما له لا ينفَكُّ يستطرِد؟ إنَّ تلكَ أحداث طوعَ بنان من شاء أن يَنبش، ولكِنَّه هكذا فُطِرَ على استكناه ما يُحيطُ بهِ ويدورُ حَولَه ويسوءُ واعِيَتَه جِدًّا ألا يُخالِجَها إحساس بدبيب الحياة من حولهِ وألا يتَرصَّدَ ما تومئ به من دلالات أو تَحمِلُ من عِبَر، وإنَّه لَيجدُ لأصدائها في نفسِه دَوِيًّا يهيضُهُ بقدر ما يُفسِح له مِن رؤًى ويبسُطُ لهُ من أُفق، فماذا عساهُ أن يفعَلُ؟ أيَخرُجُ من إهابِهِ؟ وفيمَ العَجَلَةُ، وكُلُّ آتٍ قريب؟ ثُمَّ إنَّ كُلًّا مُيَسَّر لِما خُلِقَ لهُ.

هو الآنَ غريب، جوازُ سفَرِهِ مُودَع رهينةً لدى صاحِب الفُندق وقد اهتبلَ من مالِه – إن جاز أن يُطلَق عليه مال – شطرَه أو يزيد وكان مُعَوَّلُه على أن يحظى بالوظيفَة وعلى حِسابها يَسَعُهُ أن يقترضَ من الوزارة إن أمكنَ، فإن لم يُمكِن فَمِن زميل والناسُ للناسِ، ثمَّ إنه ضامن من نفسهِ أن يُسَدِّد الدَّين، فأين أين منهُ الشَّهادة تلكَ التي كان يزهَدُ فيها كُلَّ الزُّهد، وإنه الآن لَيستَشعِرُ لافتقادِها شُعورَ مَن جُرِّدَ من سلاحهِ بَغتةً أمامَ وَحشٍ راصدٍ يُوشِكُ أن يتقَحَّمَهُ؟ وهل أضرَى من العَوز مع الغُربةِ؟

إنها هناك في القاهِرة تتوسَّد صفحات كتاب، لا يُخالِجُها طَيفُ صاحبها، ولو كانَ لها حس لتأبَّت عليه ولزهدَت فيه بقدر زُهدِه فيها، وعلى كُلٍّ، فليستَدرِكْ، وليطلُب

يدها قبلَ أن يطولَ على بُعدها الأمد، فيشقى من دونها في العيشِ شقاء المستوحش الغريب، وليهبط إلى بغداد، ولينتزعَ منها أودَه، وبقيَ أن يُنَحِّي كُلَّ ما درَجَ عليه من ترَفٍ وأن يستنهِضَ هِمَّتَهُ ويُوطِّنَ نفسَه- أو بالأحرى جسدَهُ الذي لم يعهد الكدح - على تحمُّل العناء، إلى حيثُ يُسلِمُه للتَّقَلُّب على جنباتهِ ليلًا ويُخمِدُه عنوةً فلا يكادُ يرى في تهويمِه إلا الكوابيس.. أليسَ يُريدُ العِزَّةَ واجتناءَ زُبدة الحياةِ – حياة الرُّوح؟ بلى، وإنَّ لذلكَ ثَمَنًا لن يبهَظَه ولن يتكاءَدَهُ مهما علا سِعرُه، وهو القائِلُ فيما بعد :

شَـظَفٌ حـَولي وفي عَيْشــي كــذا كـِبَرُ الأنْفـُسِ يدعــو الشـَّظَفا

وسَيكتُبُ لِوالِدَتِهِ بعدَ أن تَنقَطعَ حِيَلُهُ في قبول طَلَبِهِ التَّوظيف ويلقى نَصيبَهُ من الشَّقاءِ غَيرَ مبخوس، وهيَ تَستَحِثُّهُ وَيحَكَ عُدْ: ماذا؟ أفي كَفَّيَّ دِماءٌ وعلى كَتِفَيَّ ندوب؟ نعم، ولَكِنَّ في عَينَيَّ بَريقًا.. إنَّ في عَينَيَّ بريقًا.

ولو دَرَى أنَّها سَتَأخُذُها على ظاهِرِها لما خَطَّتها يَدُهُ، فما أجرَى لها دَمعَةً. وجلس يُغالبُ الوقتَ ويكتبُ في استعجال إرسال الشَّهادات الثلاث؛ العربية والتَّرجمتين، ويصِف لوالدته أن قد نسيهما في كتابين، أحدهما (إعجاز القرآن) للباقلاني والآخر (تهافت الفلاسفة) للغزالي، وأن تأثُّرَه ببُكائها وهي تستوحِشُ رحيلَه قد أذهَلَهُ عنهما. وراحَ يلتَمِسُ للخطاب ظرفًا وأودعَه فيهِ، ليُسقطَه في أقرب مكتبٍ للبريد.

والآنَ ها هو يخطُرُ على سُلَّم الفندق الضَّيق ثمَّ يضعُ قَدمَيه على أوَّل الطريق، فإلى أي مسلَكٍ يَسلُك من بغداد؟ أإلى الأعظميَّة أم إلى الكَرخ أم إلى الكرادَة أم تُرى

يُخَوِّضُ إلى المنصور أو منطقة الثورَة أو الرصافة أو حي 7 نيسان أم ماذا؟ وما مدى عِلمِه بكُلِّ أولئك؟

إنَّه ليشعرُ شعورَ اليتيم الذي فقدَ أباهُ فجأةً وقد كانَ عائِلَهُ ومُغنيه عن الكسب بلهَ التَّنَكُّب في فِجاجِ الأرض بلا أداةٍ أو نهجٍ، وما كانَ عُمرَهُ إلا طالِبًا أو دارِسًا، لا يُعمِلُ جَسَدَه في ابتغاءِ رِزقِه، أو تَحصيلِ قوتِه وإذا تَمَثَّلَ مكانًا لعَملهِ فلا مَندوحَةَ عن أن يكونِ مَكتبًا يجلِسُ وراءَه وقُصارَى أمرِه معَهُ أن يَمَلَّ، لا أن يلغبَ، منه.

تُرى أيُّ الأعمالِ أدعى لِأن يستوعِبه على وجهِ العَجَلَة، وأي جهةٍ يُيَمِّمُ في ابتغائِه؟ وسألَ فدلُّوه على المطاعِم حيثُ لا يخلو النَّاس من إلحاح البطون، وفي العراقِيّينَ نَهَمٌ لا يفتر، وسيقولُ له أحَدُهم فيما بَعدُ: نحنُ العِراقِيّين يا أخي بنا قَرَمٌ إلى اللحم، لا نستطيعُ عنهُ غَناءً.

ففي أيِّ الأحياءِ مِن بَغدادَ يَنشُدُ مُبتغاهُ؟ أيَقصِدَهُ في العامِرِيَّة أم في الغزالية أم في الجادِرِيَّة أم في الدَّورة أم تُرَى يطلُبُهُ في السيدية أم في السَّعدون أم في الشُّعلَة أم باب المعظَّم أم في الباب الشَّرقي؟ أم يَلتَمِسُهُ في البيَّاع أو حيِّ العَدل أو حيَّ أوز أو سبع أبكار أو اليرموك أو الشعب أو المنصور أو راغبة خاتون أو الزَّعفرانِيَّة؟ إلى أينَ عساهُ أن يتوَجَّه، وإنَّهُ لَفي بَغدادَ ثانِيَة كُبريات العواصِم العَرَبِيَّة بعدَ القاهِرَة، أيقصِدُ جِسرَ دِيالى أم الوَشاش أم عرَب جبور أم حي الإسكان أم الفضل أم منطقة الحُرِّيَّة أم أبو دشير أم الوَزيريَّة؟ أم تُرَى يَؤُمُّ زَيُّونة أو شارِع حيفا أو الطُّوبجي أو حيِّ الشُّرطة؟ ماذا؟ أمجنونٌ هو حتَّى يَلِجَ ذلكَ الأخير، وسَوفَ يرى من الشُّرطَةِ بعدُ ما

يَرى دونَ أن يَقتَرِفَ مِن أمرِه أو يُصدِرَ مِن فِعله – سوى أن نافَحَ عن بلَده – نُكرًا؟

(6)

للمدينةِ مع هذهِ السعة جانبينِ يَشُقُّهما دِجلة، فعلى جانبه الشَّرقيّ تُوجَدُ الرَّصافَة، وعلى جانبِه الغَربيَّ توجَدُ الكَرخ، وكلتاهُما من السعة بحيثُ يتوهُ فيها الساكِنُ المقيم فضلًا عن الوالج الغريب، وهما تكتظَّان بالمباني الحديثة وتخترقهما شوارِعُ منها الطَّويلُ العريضُ المنَظَّمُ ومنها القصيرُالضَّيِّقُ المترَب، ويربِطُ بينَهما اثنا عشرَ جِسرًا، فلو بُعِثَ فيها الرَّيحاني وزكي مُبارك ومن قبلِهما بقرونٍ ابنُ جُبَير لما رأَوا مِن حديثها ما يُذَكِّرُهم بقديمها إلا شواهِدَ قليلة نَجَت مِن تَقَلُّباتِ الزَّمان، كبقايا سور بغداد ودار الخِلافة والمدرَسَة المستنصِريَّة.

وقد زارَها هذا الأخير في القرن السادِس الهِجري – الثاني عشر الميلادي، وكان مجدُ العبَّاسِيّين قد ولَّى وذهَبَت بَعدَهُ صَولَةُ بني بُويه وفي عهد السَّلاجِقَة بعضٌ مِن رَمَقٍ وهيَ مع هذا نهب للفِتَن، يتَهَدَّدُها التتار الفاتحون ويعمُّ الخرابُ الكَرخَ في جانبها الغربي حتَّى يَتَبَدَّلَ مركزُ نشاطها الاقتِصادي والاجتماعي والفِكري، وينحَصِر مركَزُ إعمارِها في أطرافِ نهرِ عيسى، زارها فلم تَرُقهُ، وإن يكُن استَعرَضَ مَحلَّاتها السبعَ عشرَةَ في عهدِه وراحَ يَصِفها في كتابِه (تَذكِرَةٌ بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار) وَصفَ مَن باخت صورَتها التي مثَّلها له ذِهنُه في نفسِه: "قد ذَهَبَ أكثَرُ رسمِها، ولَم يَبقَ إلَّا شَهيرُ اسمِها، وهِي بالإضافَةِ إلى ما كانت علَيْه كالطَّلَلِ الدَّارِس والأثَرِ الطَّامِس".

هوَ ذا شارِعُ الرَّشيد وتلكَ مطاعِم القومُ لا تكاد تخلو ليلًا أو نهارًا، مِنها ما يُقَدِّم طبيخ الخَضَر والأرز، وأغلَبُها يُقَدِّمُ اللحمَ أشكالًا وألوانًا، وللعراقيين في إطلاق مُسَمَّياتها قاموس غير معهود في المطبخ العربي، شأنها شأنُ كثير من ألفاظهم الجارِيَة على ألسِنَتِهم في معاملاتهم وشئون حياتهم، حتَّى لَيبدو أثَرُ العُجمَة وبصمات الغُزاة على توالي العصور غالِبًا على عرَبِيَّتهم على خِلاف مصر التي ابتلعت كُلَّ لُغات الغُزاة وفَرَضَ أهلُها سِمات العَرَبِيَّةِ لُغةً وسلوكًا.

وقد جانب التوفيق زَكي مبارك في الحكم على ذلِك الجانب لدى العِراقِيّين، إذ رأى الأمرَ على نقيضِه، حَيثُ يقول: "وكُنتُ أتَصَوَّرُ بغدادَ مَدينَةً أثَّرَ فيها الاحتلال، احتلال التُّرك أو احتلال الإنجليز، فَوَجَدتها مَدينَةً عَرَبِيَّةً في كُلِّ شيء، ولا تغلبُ فيها لُغَةُ التُّركِ ولا لُغَةُ الإنجليز، فالعراق مِن هذه النَّاحِيَةِ يُشبِهُ مِصرَ، فهوَ يَبتَلِعُ كُلَّ شَيء، ولا يُؤَثِّرُ فيهِ شَيء" وسيعقُبُ حُكمَه الخاطِلَ هذا أحكامٌ غَريبَة في بابها، ولعلَّ لضآلة المدَّة التي قضاها هُنالِكَ، ولِطبيعَة عملِه مُدَرِّسًا بمدرَسَة المعلِّمين العالية التي قَصَرَت معاملاتِه على المثَقَّفين أثَرًا في أحكامِه، وقد كانَ – رَحِمَهُ اللهُ – مُدَقِّقًا، وإلا فأينَ يَسَعُكَ أن تَسمَعَ أمثال كلِماتٍ كتِلكَ في غير العِراق مِن البلاد النَّاطِقَةِ بلُغَة الضَّاد؟

وعِندكَ – ما دُمنا في ذِكر المطاعِم –التِّكَّة والمِعلاج والتَّشلِّفْراي والجيمَر والتِّمان، حتَّى الخضراوات المتعارَف على مُسَمَّياتها أخرَجوها عَن عَلَمِيَّتِها، فأطلَقوا عليها اسمًا مِن أوصافِها كاليابسَة للفاصوليا البيضاء والأسوَد للبازِنجان، وغير ذلكَ كثير.

فإن انتقَلتَ إلى أدوات الطَّعامِ أو الشَّراب وجَدت الخاشوجَة والجلاس والاستكانة وأضرابَها، وكذَلِكَ الملابِس، كالكُندَرة للحِذاء، بل حصَّل الأمر الحيوانات، فَسَمَّوا الحمارَ(الزُّمال) ويجمَعونَهُ على (زَمايل)، وعلى ذِكر هذه الزَّمايل فقد كانت مَطلَقَةً في الشَّوارِع، لا يُعرَفُ لها مالِك، فهي رَخيصَة لدَى القَوم لا يَرَونَ لها استِخدامًا فضلًا عمَّا نُسِبَ إلَيها من البلادَة، فكانَ امتِهانُهُم إيَّاها امتِهانًا مُرَكَّبًا.

وكانَ مِمَّا يُضحِكُه أن يَجِدَ على الحوائِطِ والجُدُر – لإلف السَّكارى، وما أكثَرَهُم هناك، أن يَقضوا حاجَتَهُم في الطَّريق – عِبارَة (البول للزَّمايل).. غَيرُ صحيحٍ إذَن أنَّ العرَبيَّةَ لم تتأثر بتعاقُب الغزو في العِراق، والأرجَح أنَّ توافُدَ الأغراب عليها باعَد بينها وبينَ فصيح اللغة.

وأدَقُّ من ذلِك قول أمين الرَّيحاني – مع التَّحَفّظ على التَّعميم: "ومعَ أنَّهُم كلهم كانوا مُسلمينَ، فما جَمَعَت رابِطَةُ الدِّينِ شَمْلَهُم، ولا لطَّفَت شُعورَهم، وما أزالَت غَيرَ القليلِ من التَّنافُر والتَّنابُذ فيما بَينَهُم. هؤلاءِ المهاجِرونِ المتَوَطِّنونَ بغدادَ، بعدَ كارِثَتِها الأخيرَة، هم أجدادُ سُكَّانِها اليَومَ. وما كانَ فيهِم مِن العريقينَ في النَّسَب العَرَبِيّ غيرُ القليل، مِنهم آل سوَيدي وآل سَعدون وآل شاوي وآل جميل وبيت الألوسي. أمَّا السَّوادُ منَ النَّاس، وقُل الأخلاط، فلا يزالونَ اليَومَ، على الإجمال، كما كانوا في الماضي بعيدينَ مِن بَوتَقَةِ الإدغام والامتِزاج. وما غَيَّرَ التَّزاوجُ المختَلَطُ بَينَهُم، وإن قلَّ، شَيئًا جَوهَرِيًّا في أحوالِهم القَومِيَّة ونزعاتِهِم الجِنسِيَّة".

حفَّزَ نفسَهُ وَوَلَجَ بابَ مَطعَمٍ وقصَد صاحِبَه وعرضَ عليه أن يعمل لديه ولو ليومٍ، فَقَبِلَ واتَّفقا على الأجر، ثمَّ راحَ يُقَدِّمَ الأطباقَ مُتلِئَةً ليَجمَعها فارِغَةً من صَبيحَةِ يومِه إلى أن زحَفَ الليل وأزعَجَه في البدء اختلاف اللهجة والمدلولات ثمَّ لم يَلبث، وهو اللبيب، أن أدرَكها، وخرَجَ – بعد الكَدِّ – بما يقوتُه وبانطباع عن صفات الأكَلَة التى لم يَستَتِر منها الغِلظَة، وهي التي وجدَها منهم ابن جُبير مُنذ قرون فاتَّهَمَهم – عن غيرِ تَجَنٍّ – بالكبرياء والرِّياء وازدِراء الغَرباء.

وسيرى من طباع البغداديين ما يؤكد في نفسه رؤية ابن جُبير وأن المولجين في مدحهم لن يخرجوا عن فِئات أربع، فهم إما قارئ عن أيام مجدهم في التاريخ، ولم يسنح له أن يُلابِسَهُم، فحكمَ عليهم وعلى حُكَّامهِم بمعيار لم يوافق زمَنَهُم ومِن أولئك شوقي، حيثُ يقول:

دَعْ عنكَ روما وآثينا وما حَوَتا ... كُلُّ اليواقيتِ في بَغدادَ والنُّوَمِ
وَخَلِّ كِسرَى وإيوانًا يُدِلُّ بِهِ ... هَوَى على أثَرِ النِّيرانِ والأُيُمِ
واترُكْ رَعَمسيسَ إنَّ المِلكَ مَظهَرُه ... في نَهضَةِ العدلِ لا في نهضَةِ الهَرَمِ
دارُ الشرائعِ روما كُلَّما ذُكِرَت ... دارُ السَّلامِ لَها ألقَتْ يَدَ السَّلَمِ
ما ضارَعَتْها بيانًا عِندَ مُلتَأَمٍ ... ولا حَكَتْها قَضاءً عِندَ مُختَصَمِ
ولا احتَوَت في طِرازٍ مِن قَياصِرِها ... على رَشيدٍ ومأمونٍ ومُعتَصَمِ
مِن الذينَ إذا سارَتْ كَتائِبُهم ... تَصَرَّفوا بحُدودِ الأرضِ والتُّخُمِ

ويَجلِسونَ إلى عِلمٍ ومَعرِفَةٍ فلا يُدانَوْنَ في عَقلٍ ولا فَهَمِ
يُطَأطِئُ العُلَماءُ الهامَ إن نَبَسوا مِن هَيبَةِ العِلمِ لا مِن هَيبَةِ الحكمِ
ويُمطِرونَ فما بالأرضِ مِن مَحلٍ ولا بِمَنْ باتَ فَوْقَ الأرضِ مِن عُدُمِ
خلائِفُ اللهِ جَلُّوا عَنْ مُوَازَنَةٍ فلا تَقيسَنَّ أملاكَ الوَرَى بِهِمِ

كما يَقولُ:

سُبحانَ مَنْ مَبعَثُ الدَّوْلاتِ قُدرَتُهُ بَغدادُ مِصرُ وأنتُم آلُ عَبَّاسِ

ويقولُ:

مَواكِبُ لَمْ تُعهَدْ لِغَيْرِ زُبَيْدَةٍ بِبَغدادَ في الأعيادِ والجُمُعاتِ
أعادَت حَديثَ الخَيزُرانِ وعِزَّها وما أغدَقَتْ مِنْ أنعُمٍ وهِباتِ

ويقول:

بغـــــــدادُ دارُ العـــــــالِما تِ ومَنـــــــزِلُ المتَأدِّبـــــــاتِ

وإما مَدعُوٌّ إلى زيارَتِهم لمهرجانٍ شِعري أو عابِر، فهوَ مُجَنِّحٌ عَلَى بغداد غيرَ مُقيم، لم يطَّلِع على طبائِعِ أهلها إلا كما يَطَّلِعُ المدعُوُّ إلى حَفل، فيحكم لهم حسبما رأى من دلائِلِ التَّكريم، وربَّما عَضَّدَ مديحَهُ بنهج السابِق فضَرَبَ في ذكرِ التَّاريخ مِن قبيل قول علي الجارِم:

بَغـــــدادُ يا بَلـــــَدَ الرَّشـــــيدِ ومَنـــــارَةَ المجـــــْدِ التَّليـــــدِ
يا بَســـــمَةً لمـــــا تـــــزَلْ زَهـــــراءَ في ثَغـــــرِ الخُلـــــودِ

يا مـــــوْطِنَ الحـــــبِّ المقيــــــــمِ ومَضــْـرِبَ المثــَـلِ الشـــَّرودِ
يا ســـــطْرَ مجـــــْدٍ للعـــــــروبــةِ خـــُطَّ في لــَوحِ الوجـــودِ
يا رايــــــةَ الإســــــلامِ والــــــإســـلامُ خَفــَّــاقُ البنـــــودِ
يا مَغـــــرِبَ الأمـــــَلِ القديــــــم ومَشـــرِقَ الأمــَلِ الجَديــدِ
يا بِنـــــتَ دِجلـــــةَ قـــد ظَمِئـــــتُ لرَشــْفِ مَبْسـِمِكِ الــبَرودِ

ثمَّ قَولُه:

بغـــــــــدادُ يا دارَ النُّهـــــــــى والفـــَنِّ يا بَيـــــتَ القَصـــــيدِ

فقولَه:

بَغـــــدادُ أيـــــنَ البُحـــــتُرِيُّ وأيـــنَ أيــْنَ ابـــنُ الوَليـــدِ
ومجـــــــالِسُ الشـــــُّعراءِ في بَيــْتِ ابـــنِ يحــَيَى والرَّشـــيدِ
أيـــــنَ القِيـــــانُ الضــــَّاحِكا تُ يمِســـنَ في وشـــيِ الــبرودِ

فقَولُه:

والجـــــاحِظُ المــــرِحُ اللَّعـــــوبُ يَغـــوصُ للـــدُّرِّ الفريـــدِ
بغــــــدادُ يا وَطـــــنَ الأديـــــبِ وأيكـــةَ الشـِّعرِ الغريـــدِ
جـــــدَّدتِ أحلامـــــي و كُنـــــتُ صـَحَوتُ مـِن عهـدٍ عهيـدِ

فقوله:

بغـــــــدادُ أشـــــــرَقَ نجمُهـــــــا وبـــدا بهـــا ســـعدُ الســـعُودِ
ســــلَكَت إلى المجـــــدِ القديــــــ ـــمِ محَجــــَّةَ المجــدِ الســديدِ
وَزَهـــــــَتْ بِأقمـــــــارِ الهـــــُدى وَســــَطَتْ بِأظفـــارِ الأســــودِ

ثمَّ قوله:

أهلــــــوكِ أهلــــــونا وأبــــــ ـــنــاءُ العشـــيرَةِ والجــــدودِ
بــــــيَنَ القلــــــوبِ تَشــــــوُّفٌ كَتَشــــوُّفِ الصـــَّبِّ العميـــدِ
حـــــتَّى يكــــادُ يحـــُـبُّ نخـــــ ـــلَكِ نخـَلُ أهلــي في رشــيدِ
شـــَطَّت منازِلُنـــــا ومـــــا احــــ ـــتاجَ الفــــؤادُ إلى مزيــــدِ
الرَّافـــــــــدانِ تمازَجـــــــــا في الحــــُبِّ بالنِّيــــلِ الســـَّعيدِ
وتَعـــــانَقَ الظــــِّلانِ ظــــِلُّ الطـــــاقِ والهـــــرَمِ المشــــيدِ

ونَحوَ ذلِكَ قولَ أحمد رامي:

في هوَى بابلٍ وحُبِّ النَّواسي جِئتَ أسري على هُدى إحساسي
أَمْلأ العَينَ مِن مَباهِجِ بغدا دَ وأسعَى إلى حمَى العبَّاسِ
وأرَى دِجلَةَ الذي فاضَ بالخَيـ ـرِ علَيْها وماجَ بالإينَاسِ
وَرِفاقًا إلى فُؤادي أحِبَّا ءً على العَيْنِ ودُّهم والرَّاسِ
جَمَعَتني بهم دِيارِي فَكانوا في مَراحِ الصِّبا أعزَّ النَّاسِ

ثمَّ قولُه:

لم أزُرْكُم مِن قبلِ هذي ولَكِن سَبَقَتني إلَيْكُمُ أنفاسي
رَدَّدتها صَدَّاحَةُ الشَّرقِ أنغا مًا عِذابا نَدِيَّةَ الأجراسِ

وهو يعني هُنا أمَّ كلثوم وترديدها أغانيه في فيلم دنانير وتمثيلها الدور الذي ألَّفَه وقد تركَّزَت أحداثه في بغداد:

هِيَ قلبي يَذوبُ في اللَّحنِ وجدًا ودموعي جَرَت على قِرطاسِي
أنا أودَعتُها حَنيني إلى بَغدا دَ في عهدِها الجَليلِ الماسي
حَيْثُ هارون في سَنِيِّ عُلاهُ سَيِّدُ الشَّرقِ في النَّدى والباسِ
ودنانيرُ في البساتينِ تَشدو بالنَّسيبِ الشَّهِيِّ مِن عبَّاسِ
والجَوارِي يُرسِلنَ وسوَسَةَ الحَل يِ ويَرفُلنَ في بهَيِّ اللباسِ
يَتَهادَينَ في الغلائلِ أطيا فًا تراءى لِسابِحٍ في نُعاسِ

ويـــرُدِّدنَ ســـاحِراتِ الأغاريـــ ـــدِ علـــى وَقـــعِ مَزهـــرٍ ونحـــاسِ
هُنَّ في الرَّوضِ بُلبُلٌ يَبعَثُ الشَّـ ـجْوَ وفي الخِدرِ شادِنٌ في كِناسِ

حتَّى يَصِلَ إلى قَولِه:

ثُمَّ نافَحتِ عن حِمى الحقِّ والشَّر قِ وأصـــبَحتِ شـــُعلَةَ النـــِّبراسِ
يَقـبَسُ القابِسـونَ مِنـكِ سـنا ال عِلـــمِ فَتُعطِيـــنَهُم بـــلا مِقيـــاسِ
وتـــُديرينَ في الوجـــودِ منـــارًا ثابـــتَ الـــرُّكنِ مُســـتَقِرَّ الأســـاسِ

ولا يُبَعِّدُ عنه شفيق جبري، حيثُ يقولُ في حفلة رِثاء الزَّهاوي:

أحُمرَةُ الفُجرِ بَينَ النَّخلِ ما أجِدُ أم وَجهُكِ الطَّلقُ يا بَغدادُ مُنفَرِدُ
أم لَفَّني اللَّيلُ والأحلامُ فاختَلجَت عَينايَ في اللَّيلِ ما أدري الذي أجِدُ
نَفَضتُ نَومَ الضُّحى عن مُقلَتي لأرَى هل ذِكرَياتُ بَني العَبَّاسِ تَحتَشِدُ
أعـادَ عَهـدُكِ والدُّنيا تُضاحِكُـهُ لِلْعَبـقَرِيَّةِ والتَّخليـدِ ما يَلـدُ
قالت دِمَشقُ وقد ناجَيتُ غوطَتَها ومائِجُ الدَّوحِ في جَنبَيَّ مُطَّرِدُ
أتَتْرُكُ الـرَّوضَ والأنغـامُ تَمْلَؤهَا وتَنتَحي البِيـدَ لا رَوْضٌ ولا غَـرِدُ

إلى أن يقولَ:

فَقُلتُ مَهلًا وَراءَ البيدِ مُنْحَدَرٌ للرَّافدَيْن علَيه الأهلُ والوَلَدُ
قد تَبْعُدُ الأرضُ إلا عن جوانِحِنا فَلَيسَ دونَ اهتِزازِ القلبِ مُبتَعدُ
مَهلًا دِمَشْقُ فإن أزحَف إلى بَلَدٍ يَزْحَف إلَيَّ بنو العبَّاسِ والبلَدُ

أطوي السِّنينَ فتلقاني خيالَتُهُمْ كأنَّني بَينَهُم دانٍ وقَد بَعُدوا
أكادُ ألمسُ في جَنبي خِلافَتَهُم كأنَّما اللَّيْلُ مِن لألائها يَقِدُ
وتُوشِكُ العَينُ أن تَلقَى قُصُورَهُمُ يَموجُ فيها الهَوَى والعيشَةُ الرَّغدُ
كأنَّني وَحِمَى المأمون مُزدِحِمٌ أرَى الوفودَ إلى أفيائِهِ تفدُ
ماضٍ مِن الدَّهرِ لَمَّتنا أواصِرُهُ لا الغَوْرُ يَطرَحُهُ عنّي ولا النُّجدُ
العندَليبُ إذا غَنَّى بِدِجلَتِهِ غنَّى علَى بَرَداهُ الطَّائِرُ الغَرِدُ
تَألَّفتْ فيهما الذِّكرَى على وَطَنٍ كما تألَّفَ رُوحُ المرءِ والجَسَدُ
أيوجِعُ الجُرحُ في بغدادَ مُهجَتَها وتَحمُدُ الشَّامُ لا تبكي ولا تَجِدُ

ويقولُ في مَوضِعٍ آخر:

بيني وبينَكِ يا بَغدادُ واشِجَةٌ مِن الأواصرِ ما تَنْفَكُّ تَلتَحِمُ

وعلى الوتَرِ نفسِه يَضرِبُ بشارة الخوري (الأخطل الصَّغير):

قولي لِشَمسِكِ لا تَغيبي وتكَبَّدي فلَكَ القلوبِ
بَغدادُ يا وَطَنَ الجِهادِ ومُرضِعَ الأدَبِ الخَصيبِ
غنَّاكِ دِجلَةُ والفُرا تُ قصائِدَ الزَّمَنِ العَجيبِ
رَقَصَت قَوافيها على نَغَمِ البشائِرِ والحروبِ
أعراسُ دارا مِن مَقا طِعِها وخَيْبَةُ سَنحَريبِ
حتَّى إذا طَلَعَ الرَّشيـ ـدُ وماجَ في الأفقِ الرَّحيبِ

صـــــهَرَ القـــُـرونَ وصـــاغَها تاجـــًا لمِفْرِقـــكَ الحبيـــبِ
أُســـدَ العـــِراقِ ومـــا الـــرِّيا حُ الهـــُوجُ طاغِيـــَةَ الهُبـــوبِ
أمضـــَى وأنْفـــَذُ مِنـــكِ إذ تثِبـــِينَ للأمـــر العصـــيبِ
قَلَّمـــتِ أظفـــارَ الزَّمـــا نِ وَرُعـــتِ داهِيـــَةَ الخُطـــوبِ
وَبَنَيـــْتِ بالقَلـــَمِ الحليـــ ـــمِ وبالمهَنـــَّدَةِ الغَضـــوبِ
مجـــَدًا تَنَقـــَّلَ في العُلـــَى بـــَينَ الأشـــِّعَّةِ والطُّيـــوبِ
بغـــدادُ يا شـــَغَفَ الجَمـــا لِ وَمَلعـــَبَ الغـــَزَلِ الطـــَروبِ
بَنـــَتِ المكـــارِمُ لِلعـــُرو بـــَةِ فيـــكِ جامِعـــَةَ القلـــوبِ
بَيـــتٌ مـــِنَ الأخـــلاقِ ضـــا قـــَت عنـــهُ أخـــلاقُ الشـــُّعوبِ
وَســـِعَ الـــدِّياناتِ الســـِّما حَ وَضـــَمَّ أشـــتاتَ النـــُّدوبِ

ثُمَّ يقولُ:

صـــَحراءُ يا بنـــتَ الســـَّما ... ءِ البِكـــرِ والـــوَحيِ الخَصـــيبِ
أنا لـــو ذَكـــَرتُ ذَكـــَرتُ أحـــ ... ــــلامي وأنغـــامي وكـــوبي
إحـــدَى الشـــُّموعِ الـــذائبا ... تِ أمـــامَ هَيكَلـــِكِ الرَّهيـــبِ
أنا دَمعـــــــَةُ الأدَبِ الحَزيـــــــ ... ـــنِ رِســـالَةُ الأَلَمِ المـــذيبِ
مـــِن قَلـــبِ لُبنـــانَ الكَئـــي ... بِ لِقَلـــبِ بَغـــدادَ الكَئيـــبِ

ويقولُ لشاعِرٍ عِراقِيٍّ أمَّ لُبنانَ:

يا رَســـــولَ الأدَبِ العـــــا ... لي ســـلامَ الشـــِّعرِ عَنـــا
قـــُل لِبَغـــدادَ مـــَتى عـــُـ ... ـتَ إلَى بَغـــــــــــدادَ إنَّا

يعني (إننا نهواهُ ونشتاقُ إلَيه).

ويُرَنِّم عَزيز أباظَة:

حُثّي جَناحَكِ في الجِواءِ ويَمِّمي ... بَغدادَ تُحتَضَني بها وَتُكَرَّمي
بغـــدادُ أُخـــْتُ القـــَريَتَينِ وإنهـــَّا ... لهُمـــا لَثالِثـــَةُ البَقيـــعِ وزَمـــزَمِ
جِئنـــاكِ تَحمِلُنـــا نجائـــِبُ حـــُوَّمٌ ... لا في الجِيادِ ولا النِّياقِ الجُثَّمِ

ثُمَّ يُواصِلُ:

قـــالوا بَلَغـــتُم قُلـــتُ أفـــقَ الأنجـــُمِ ... ومـــَدارَ كـــُلِّ مُرَجـــَّبٍ ومُعَظـــَّمِ
لَم نَنـــْأَ عـــَن وَطـــَنٍ ولا أهـــلٍ أمـــا ... جَرَتِ العروبَةُ بَيننا مَجرَى الدَّمِ

قالوا بَدَت بَغدادُ قُلتُ تَدافَعَت بَغـداد بـيَنَ تَـنَعُّمٍ وتَقـدُّمِ
وَجَعَلـتُ أشـرعُ ناظـريَّ كأنمـا أشْـتَفُّ أقصـى طلبـةِ المتَوَسـِّمِ
فَشَهِدتُ عِرقَ العتقِ كَيْفَ أمَدَّها عـبرَ القـرونِ بِعـِزَّةٍ وَتَكـرُّمِ
قـُل للنُّواسـيِّ العظـيمِ الملهـَمِ وأبي مُعـاذٍ والشـَّريفِ ومُسـلِمِ
والطـَّائِيَيْنِ الخالـدَينِ علـى المـدى مـِنْ بُلبـُلٍ غـَرِدٍ وبحَـرٍ خضـرمِ

ويُمعنُ في المبالَغَة فيقولُ:

هـاتوا مـِنَ السِّحرِ الحـلالِ أزُفـُّهُ لِسنائِها القُدسِّيِّ سَجدَةَ مقْدِمي
أنّي أَحـُجُّ لهـا وبـين جـَوانِحي شَوقٌ كَأَنفاسِ اللُّهابِ المضْرَمِ
وهَبَطـت في بَطحائِهـا فكَأنهَّـا ال بطحاءُ تَسنَى في جلالِ الموسِمِ
وسـَعَيتُ في رَحباتهـِا ودُروبهـا بِخشوعِ مُعتَمرٍ وتقوَى مُحرِمِ
أَمـَلٌ يـُراوِحُني السـِّنينَ قَنَصـتُهُ فَلَقِيتُهـا في مجـدِها المتَسـَنِّمِ
مَزهـُوَّة الأعطـافِ زَهوَالصـُّبحِ قـَد أضفَى سَناهُ على الفضاءِ المظلِمِ
بغـدادُ والـدُّنيا الفَتيـَّةُ كُنْتِهـا حـِينَ الـبِلادُ وَلائـدٌ لَم تُفطـَمِ
قَرَّبـتِ لِلأمـَمِ المشـارِعَ فـارتَوَتْ مِن فَيضِها المتَدَفِّقِ المتَسَجِّمِ
فَهَوَت تَضَلَّعُ مِن حَضارَتِكِ التي لَم تَعرِفِ الدُّنيا لها مِن تَوْءَمِ
وتَسـابَقَت تهَفـو لِمـا وِّشَّيتِ مـِن أدَبٍ زَكـا في حِضـنِكِ المـترَنمِّ
مـا بـَينَ بَصـْرِيٍّ وكـوفِيٍّ دَعـَتْ أشياخُكِ الفُصحَى لِنَهجٍ أسلَمِ

هـــذا رواقُ الأَصــــمَعِيِّ ومِثلـــُهُ لِأبي عُبَيـْدَةَ مَجلِـسٌ والأسـلَمِي
حجــَجُ الزَّمـــانِ مُعَلِّمــُو أُمــَمٍ رَبا في حِجــرِهِم عِلــمٌ ثــَرِيُّ المـنجَمِ
العَقـــلُ قـــَد حَرَّرتــِهِ وَدَفَعتــِهِ فَمَضَى على غُلَوائهِ لم يُحجِمِ

ثُمَّ يقول:

والعِلـمُ قـد أحيَيـْتِ دائـرَهُ بمِـا ... أعـدَدْتِ مـِن واعٍ لـهُ ومـُتَرجِمِ
جَمَّعتـهِ نتفـا شـَوارِدَ سـُذّجًا ... يَقبَعنَ فَوْقَ وَطائِدٍ لَم تُحكَمِ
فَتَلَقَّفَتهـا مـِنْ يـَدَيْكِ عَبـاقِرٌ ... دَرَجوا بِهِنَّ على الطَّرِيقِ الأقوَمِ
أنجَبـتِهِم وسـَنَنتِ رُوحـَكِ فيهِمـو ... كالشَّمسِ تَسكُبُ نُورَها في الأنجُمِ
خَلـَدوا علـى الأزمـانِ بـَينَ مـُؤَرّخٍ ... وَمُشـَرّعٍ ومُفَلسـِفٍ ومُعَلـِّمِ
وتناهَبوا أُخرَى المعارِفِ فاجتَلَوا ... مـِنهُنَّ كـُلَّ مُغَيـَّبٍ ومُكـَتَّمِ
حـَتَّى لَأصـبَحَ كـُلُّ عِلـمٍ يُعتـَزى ... لَهمو وإن سَبَقوا إلَيهِ ويَنتَمِي
إلَّا يَكونـوا خالِقِيـهِ فـَإِنَّهُم ... عَن ماسِه نَفَضوا تُرابَ المنجَمِ

ولا يَزالُ يُناجيها ما بَينَ كُلِّ بِضعَةِ أبياتٍ وبَينَ بِضعَةٍ بِمِثلِ تِلكَ النَّغمات الشَّجِيَّة:

بَغدادُ كَرَّمتِ النِّساءَ ولَم تَكُ الدُّ ... نيـا تَضـُمُّ لهـُنَّ غـَيرَ تَهَضـُّمِ
بَغـدادُ لـَيسَ الجـدُّ فَخـرَكِ وَحـدَهُ ... إنَّ التَّبَطُّلَ بَعضُ فَخرِكِ فاعلَمي
بَغـدادُ كَرخـُكِ أيـْنَ أَيـْنَ عِصـابَةٌ ... سَلَكَتْهُ في سِفرِ الخلودِ الأعظَمِ
بغـدادُ أندِيـَةُ الهـوَى مـا حالهـُا ... ما خَطْبُ مُغرَمَةٍ هُناكَ ومُغرَمِ
بَغـدادُ أيـنَ مجـَالِسٌ قـَد زُيِّنـَت ... بالزَّهـرِ بـَينَ مُفـَتَّحٍ ومـُبَرعَمِ
بَغـدادُ أيـنَ خلائـِفٌ كـالأنجُمِ ... رَفَعـوا سَناءَكِ بـَينَ زُهـرِ الأنجـُمِ
بَغـدادُ والصـَّدعُ الكَبـيرُ شـَعَبتِهِ ... ورَأيـتِ رَأيَ الكـَيِّسِ المتحـَزِّمِ

بَغـــدادُ لاسمـــكِ هـــزَّةٌ ســـحرِيَّةٌ في كـــلِّ مِصـــرٍ لِلعُروبـــةِ يَنتَمـــي

إلى أن يَقولَ:

قـــرِّي علـــى كَتـــدِ الزَّمـــانِ عَزيـــزَةً بَغدادُ واعتَسِفي سَبيلَكِ واسلَمي

وغَيرَ بَعيدٍ يُغَرِّدُ على الفَنَنِ نَفسهِ صالِح جَودَت:

وحـــقِّ الـــذي عقـــدَ الآصـــرَه ووَحـــدَّ بَغـــدادَ والقـــاهِرَه

وذَوَّبَ في النِّيـــلِ حـــبَّ الفـــرات وقـــرَّبَ مـــن عـــارِفٍ ناصـــرَه

دَعـــانِي إلـــيْكُم بـــنَي الرَّافـــدَيْنِ حَنـــينٌ لِكأســـهما العـــاطرَه

ويا طالَمـــا كـــانَ حُلمـــي العـــراق وأُمنيـــتي هـــذهِ الحاضـــرَه

فَلمـــَّا قضـــاها لِيَ المهرَجـــانُ رَكِبـــتُ لهـــَا الفَرحـــةَ الطـــَّائِرَه

أُســـائِلُ أيـــنَ لَيـــالي الرَّشـــيدِ وأيـــنَ مَلاعِبـــه الزَّاهـــرَه

وأيـــنَ النـــَّدامَى وأيـــنَ العَبيـــدُ يَطوفـــونَ بالكـــأس والنـــَّادره

وأيـــنَ زُبَيـــْدَةُ فـــَوقَ البِســـاطِ تجـــُرِّرُ أذيالهـــا الفـــاخِرَه

وأيـــنَ دنانـــيرُ في ســـحرِها كـــأني بهـــا ســـُومَةُ القـــاهِرَه

وأيـــنَ الجـــواري يَلـــِدنَ الفنـــونَ ويُرقِصـــنَها كالمهـــا النـــَّافِرَه

وَهـــُنَّ المـــدافِئُ في الزَّمهَريـــر وَهـــُنَّ المـــراوِحُ في الهـــاجِرَه

ســـَهِرتُ أســـامِرُ هـــذا الخيـــالَ وأحلـــمُ بالصـــُّورَةِ البـــاهِرَه

إلى أنْ غـــَزا الفَجـــرُ لَيـــلَ العـــراقِ وأطلـــــَعَ أنـــــوارَهُ البـــــاكِرَه

إلى أن يَقول:

لهــا تِركــَةُ المَجــدِ عــَن كــابِرٍ وإرثُ الفَضــيلَةِ عــَن كــابِره

لهــا شــَرَفُ النَّجــَفِ المتَألــِّ ـقِ بالأنجــُمِ الحُلــوَةِ الزَّاهــِرَه

لهــا النَّســَبُ الفَخــمُ في كــَربِلاءَ وســاكِنِ تُربَتهــا الطــَّاهِرَه

لهــَا ألــَقٌ في ســوادِ العُيــونِ تَكَحَّلــنَ مــِن بابــِلَ الســَّاحِرَه

لهــَا رِقــَّةُ الحــَبَرِ الموصــِلِيِّ يكــادُ يــَذوبُ علــى الخَاصــِرَه

لهــا جَاذِبِيــَّةُ تمــَرِ العــِراقِ يَســيلُ عَلــى الشــَّفَةِ العاصــِرَه

وعلى النَّهجِ نَفسِهِ نَظَمَ محمود حسَن إسماعيل قَصيدَتَهُ التي أذاعَتها بِشدوِها أمُّ كلثوم والتي منها:

بغــداد يا قَلعَــةَ الأســودِ

يا جَبهــَةَ الشــَّمسِ لِلــوجودِ

سَمِعــتُ في فجــرِكِ الوليــدِ

تــَوَهُّجَ النــَّار في القيــود

وبــَيرَقَ النَّصــرِ مــِن جَديــدِ

يَعــودُ في ساحــَة الرَّشيــدِ

بغــدادُ يا قَلعــَةَ الأســود

وها هو نِزار قبَّاني يصدَحُ في جنباتها بشَدوه المميَّز، ثمَّ لا يكتفي فيقطفُ من أزاهيرِها بلقيس:

مـُدِّي بســاطَكِ واملَئــي أكــوابي ... وانسي العِتابَ فقَد نَسِيتُ عتابي

عينــاكِ يا بَغــدادُ مُنــذُ طفــولتي ... شَمســانِ ناعِمتــانِ في أهــدابي

لا تُنكــري وجهــي فأنــتِ حبيبــتي ... وَورودُ مائــدَتي وكــأسُ شــَرابي

بَغــدادُ جِئتــُكِ كالسـَّفينَةِ مُتعَبــًا ... أُخفــي جِراحــاتي وَراءَ ثِيــابي

وَرَمَيــتُ رَأسـي فــَوْقَ صَـدرِ أميرَتي ... وَتلاقــَتِ الشـَّفتانِ بعــدَ غِيــابِ

أنا ذَلــِكَ البحــَّارُ أنفــَقَ عُمــرَهُ ... في البَحثِ عنْ حُبٍّ وعن أحبابِ

بغــدادُ طـِرتُ علــى حريــرِ عبــاءَةٍ ... وعلــَى ضــَفائِرِ زَينــَبٍ وَرَبابِ

وَهبَطــت كالعُصــفورِ يَقصــدُ عُشَّــهُ ... والفَجــرُ عــُرسُ مــآذِنٍ وقِبــابِ

حــَتَّى رَأيْتــُكِ قِطْعــَةً مــِن جــَوهَرٍ ... تــَرتاحُ بــينَ النَّخــلِ والأعنــابِ

حَيْثُ التَفَتُّ أرى مَلامِحَ مَوطِني ... وأشــُمُّ في هــَذا الــتُّرابِ تــُرابي

لَم أغــتَرِب أبــدًا فَكــُلُّ ســَحابَةٍ ... زَرقــاءَ فيهــا كــِبرياءُ ســَحابي

إنَّ النُّجــومَ الســَّاكِناتِ هِضــابَكُم ... ذاتُ النجــومِ الســَّاكِناتِ هِضــابي

بَغــدادُ عِشــتُ الحُســنَ في ألوانــِهِ ... لَكــِنَّ حُســنَكِ لم يَكــُنْ بِحِســابي

ماذا سَأكتُبُ عَنكِ في كُتُبِ الهَوَى ... فَهــواكِ لا يَكفيــهِ ألــفُ كِتــابِ

يَغتـــالُني شـــعري فَكـــلُّ قَصـــيدَةٍ تَمَتَصـــُّني تمـــَتَصُّ زَيـــْتَ شـــَبابِي
الخِنجَرُ الذَّهَبِيُّ يَشْرَبُ مِن دَمي وينـــامُ في لَحمـــي وفي أعصـــابي
بغـــدادُ يا هـــَزَجَ الأســـاوِرِ والحُلـــَى يا مخـــَزنَ الأضـــواءِ والأطيـــابِ
لا تَظلِمـــي وَتـــَرَ الرَّبابـــَةِ في يـــَدي فالشـــَّرقُ أكـــبَرُ مـــِن يـــَدي وربابِي
قَبـــلَ اللِّقـــاءِ الحُلـــوِ كُنـــتِ حَبيبـــَتي وحَبيبـــَتي تَبقـــَينَ بَعـــدَ ذَهـــابي

أولئكَ جميعًا قرَءوا عَن بغداد في التاريخ، فارتَسمَت لها في أذهانِهم صُورَةٌ لم تتَدَنَّ عن عهد الرشيد، وما خالَط أحَدُهم مِثلَه عامَّةَ النَّاسِ، حتَّى انكَشَفَ له من الجفاء والغلظَة ما أشعَرَهُ بمرارَة الغُربَة وتجَهُّمِ الحياةِ.

(7)

ويدخُلُ في ماديحهم- وهيَ الفِئَةُ الثَّالِثة – مَن أقام بين صَفوَة القوم من مُتعَلِّميهم ومُفَكِّريهم، فَلَقِيَ من تقديرهم ما أشعَرَه بالرِّضا عنهم والغِبطَةِ بالمقام بينهم حتّى انعكَسَت لدَيه الصُّورة على نَحو ما انعكست لدى زَكي مُبارك وهو يقول في "وحي بَغداد": "وكيفَ أُعاني غُربَةَ العَقلِ ومُحاضراتي يَشهَدُها المِئاتُ مِن عُشَّاقِ العِلمِ والبيان، ولا أخطو خُطوَةً إلا وأنا مَحوطٌ بالعَطفِ والإعجاب، ولا أدخُلُ نادِيًا إلا تَلقَّاني أهلُه وسامِروهُ بالتَّرحيبِ والتَّبجيل؟

"ثم يستدرِك: "ولكن هل يكتفي مِثلي بحياةِ العقل؟ يا ضَيعَةَ العُمرِ إنْ كُتِبَ علَينا ألا نَظفَرَ بِغَير الثَّناءِ مِن عُقَلاءِ الرِّجال! وما أضيَقَ العَيشَ إن كانت لا تلمَعُ بروقُه إلا مِن صَريرِ القَلَم وسَوادِ المِدادِ!".

ولا شَكَّ أنَّ مُلابساتِ المحضَر واختلاف طبيعَتي المعشَر ذَهبا بالرَّجُلَين إلى أبعَدِ مَنحًى عن نُقطَةٍ للمُلتَقى، ففي حين رأى هو أنَّ كثيرًا من البغدادِيّين يميلون إلى احتساء الخمر وأنَّ الحانات والخمَّارات تَزخَم بغداد، وطالَما صادَف منهم في الطريق سِكّيرًا يتطَوَّح، بل إن منهم من كانَ يصحَب معه قنينة العرَق – وهو خمر مُستَخلص من التَّمر يضرِب لَونُه إلى البياض – فيجرع منه ما يُعينه على عناء عمله، وقد رفعَ عليه وعلى زَميلٍ له أثناء العمل سائق ساوَرَته الخَمر قضيبًا من حديد، وهمَّ بأن

يُهَشِّمَ رأسيهما لولا أن راحا يُحاوِرانِه، وأعانَهما عليه سُكرُه، فَخلصا منه بالكاد وطَفِقا يتَعَجَّبان.

ولم يندُر أن يَجِدَ أحدَهم جالِسًا على الرَّصيف وفي يَدِه قِنِّينتُه مُستَنِدًا على جدارٍ وقد لَطَّخَ بَذَّتَهُ بما لم يملك كبحَهُ من نفسِه، وكان يكرُبهُ أن يَشتَمَّ رائحَة الخمرِ في أزِقَّة الطَّريق بحيِّ الباب الشرقي بقلب العاصِمَة حيثُ قرَّرَ أن يُقيم، فيُسارِعُ من خُطواتِه سادًّا أنفَه بيَده، وهو ما عبَّر عنه بقولِه:

يكـــادُ المــرءُ يَســكَرُ حــينَ يَمضــي   خـلالَ الـدَّربِ مـن نـَتنِ الزُّقـوقِ

فإذا خلصَ من الطَّريق نَفَجَت علَيه دورات المياه في الفُندُق ريحًا مُنكَرَةً تكادُ تُغثيهِ إذا اضطُرَّ إلى استعمالِها؛ لكثرَة ما يُخرِجُ السكارَى مِن أجوافِهم، وكان مِمَّا عَهدَه أن يرى مساءَ كُلِّ يومٍ مُدمِنًا يدخلُ من باب الفندق، وقاطِنوه شُهود يجلِسونَ بِرُدهَتِهِ لمشاهَدَة التِّليفزيون، يتطَوَّحُ ويصدَح بِشطرٍ من أطلالِ إبراهيم ناجي، سمِعَها وأخذَها على ظاهِرِها من غناء أم كلثوم: هل رأى الحُبُّ سُكارَى مِثلنا.

في حين رأى ذلِكَ يقول زكي مبارك:"وربَّما كانَ من الحَقِّ أن نُقَرِّرَ أنَّ البَغدادِيِّين لا يَشرَبون الخمرَ أَبدًا على قارِعَة الطَّريق كما يَتَّفِقُ ذَلكَ لأهل القاهِرَة والإسكَندَرِيَّة وبورسعيد، فهم مِن هذه الناحِيَةِ عُقَلاء، ومع أنَّ الحانات تَظَلُّ في الأغلَبِ مُرخاةَ السَّتائر مُغلَقَة الأبواب لا يهتَدي إلَيها غيرُ العابثين، فقد قَرَأتُ في الصُّحُف العراقِيَّة كلِمات يَقتَرِحُ كاتِبوها أن تُوصَدَ أبوابُ الحاناتِ إيصادًا مُطلَقًا في ليالي رَمَضان".

وما أوصِدت فيما رأى هو بعد نحو أربعينَ عامًا هَذه الأبواب وغايَة الأمرِ أن أُسدِلَت عليها السَّتائِر وبَقِيَت مُشرَعَةً لِمَن شاءَ الدُّخول؛ لِشِدَّة سَطوَة الإدمان على أنفُسِهم. ثمَّ إنَّ زَكي مُبارَك يَتَحَدَّثَ حَديثَ مَن قد بَيَّتَ النيَّة على المديح؛ لِئَلَّا يُتَّهَمَ كمِصريٍّ بأنَّ عينيه حِينَ يَغتَرِبُ إنَّما تَقعانِ على القبيحِ من شمائِلِ الرِّجال دونَ جميلها، فيقولُ:"سَيَعرِفُ إخواني في مِصرَ أنِّي بَنَيْتُ لهم صَرحًا من الوِدادِ في وَطَنٍ نَبيلٍ هوَ العِراق. سَيَعرِفُ إخواني أنَّ غَيْرَتي علَى سُمعَةِ العِراقِ سَتُضافُ إلى المحامِدِ المِصريَّة، وسَيَقولُ المنصِفونَ إنَّ المِصريَّ حِينَ يُغتَرِبُ لا ترَى عَينُهُ غَيرَ الجَميلِ مِن شمائِلِ الرِّجال".

ويُفصِحُ دِراكًا عن سبَب مديحه، فلا يَندُّ عمَّا رآهُ هو سببًا لذلِكَ فَيَقول:"وهَل كُنتُ أملكُ أن أذكُرَ العِراقِيّينَ بِغَيرِ الثَّناء؟ لَقَد نُظِمَتْ في تكريمي هُناكَ قصائِدُ وخُطَب ومقالات لَو جُمِعَت لكانَت مادَّةً كَريمَةً لِكِتابٍ نَفيسٍ، فبِأيِّ وَجهٍ ألقَى اللهَ إذا ذَكَرتُ العِراقَ بغَيْرِ الجَميل؟".

على الرَّغم مِن أنَّهُ لن تنقَضِيَ أيامُه هُناكَ حتَّى يَشهَدَ فاجِعَةً في اثنَين من أصدِقائه المِصريِّين يُدَرِّسان لطلَبَة كلِّيَّةِ الحقوق، يُطلِقُ علَيهما طالبٌ عراقي النَّارَ فلا تلبَثُ أن تُسفِرَ عن مَصرَعِ أحَدِهما، وهو يصِفُ ذلِكَ فيقول في كِتابه"ليلى المريضة في العراق":"هل أستَطيعُ وَصفَ ما رَأيتُ؟ وَجَدت مَدخَلَ الكلِّيَّة مُلَوَّثًا بالدِّماءِ، فانخَلَعَ قلبي، وطافَ بالخاطِرِ أنَّ محمود عزمي قد يَكونُ ضُرِبَ بالرصاص في هذا اليَوم. وما هِيَ إلا لَمحةٌ حتَّى عادَ صَوابي؛ فقد رَأيْتُ محمود عزمي حَيًّا وإن كانَ في صُفرَة

الأموات، ومَدَدتُ يَدي أُصافِحُهُ وأُواسيهِ، فَظَهَرَتْ عَليه أماراتُ التَّأثُّرِ لِقدومي في ذلِكَ الوَقتِ، ولم نَكُن على ميعاد.

وفي تِلكَ اللحظاتِ سَمِعتُ صَرخَةً أليمَةً فالتَفَتُّ فَإذا رَجُل مُمَدَّد في غُرفَةِ العَميدِ وهُوَ مُضَرَّج بالدِّماءِ. مَن هذا الذي يَصرُخُ؟ لَقَد أخفَى الدَّمُ مَعالِمَ وجهِهِ فلَم أعرِفْ هُوِيَّتَهُ إلا حينَ عاوَدَ الصِّراخ.عَرَفتُ أنَّه الصَّديق العزيز الدكتور حَسَن سيف. وكذَلِكَ فَهِمتُ كَيفَ شاءَت المقاديرُ أن يُختَمَ عامُنا في بَغدادَ. وجاءَ شُرطِيٌّ يَهُزُّ رَأسَ الدُّكتور سيف وهوَ يَقول: مَنْ ضَرَبَكَ؟ مَن ضرَبَكَ؟ ولَكِن سيف لا يُجيب وهل يَستَطيعُ مَن قَدَّ الرَّصاصُ رَأسَهُ أن يُجيب؟ وبَعدَ لحظاتٍ نُقِلُ سيف إلى المستَشفَى وبَقِيتْ معَ محمود عَزمي أُواسيهِ. وما هِيَ المواساةُ في مِثلِ هذه الحال؟".

وعلى الرغم من شهوده تلكَ الحادِثة المرَوِّعة راحَ يُنافِحُ عن قوم المتَعَدِّي في القاهِرَة، فَيَحولُ دونَ كاتبٍ نحرير كالصَّاوي وأن يَمَسَّهم بِنَقدٍ من قريبٍ أو بعيد، وقد كانت تَعتَلِجُ في نفسِه ثورَةٌ مشبوبَة لمصابه في صاحبَيه دفعَتهُ إلى نشر كَلِمَةٍ قصيرة عن الحَادِث، فهوَ يقول:"وأخَذتُ الصَّاوي من يَدِه وانتَحَينا ناحِيَةً ثُمَّ قُلت: اسمَع يا صديقي، إنَّه لا يَجوزُ لكَ أن تَكتُبَ حَرفًا واحِدًا عن العِراق قبلَ أن تستشيرَني؛ لِأني قادِمٌ من هُناكَ، وما راءٍ كمن سَمِع. فاطمَأنَّ لِكلامي وانصَرَفَ بِسلامٍ".

ولاستيلاء شَغَفه ببغداد –على نحو ما تقَدَّم – على نفسِه، يَقرِنُ بينَ مَحَبَّتِه إيَّاها ومَحَبَّته مِصرَ، فلا يُفلِتُ مُناسَبَةَ فيضان نهرَي دِجلَةَ والنيل في عامٍ واحِد، وذلكَ قبل أن يُبنى سَدَّاهُما، ليَقولَ:

طَغَـــَى النَّهـــرانِ في عـــامٍ وفاضـــا حَبيـبٌ يَستَجيبُ لـهُ حَبيبُ
تـــراءَت دِجلَــــةٌ تَطغـــَى وتَســـعَى كمـا يَسـعَى إلى المـوتِ الطَّبيـبُ
فَثـــارَ النِّيـــلُ يَســـأَلُ مـــا شَجاهـــا وما عَيـنٌ لِأدمُعِها تَثوبُ
عِراقيُّـــــــــونَ في داراتِ لَيــــــلَى لهُم مِن لُطفِ أنفُسِهِم ذنوبُ

ويقولُ مُتَفَجِّعًا، وهو يأبى إلا أن يُؤَنِّثَ دِجلة تقريبًا لهُ من نفسِه:

طَغَت دِجلَةٌ فيما سَمِعتُ فَأغرَقَت بُيوتًا لنا فيها وإن بَعُدَت أهلُ
تَحَدَّثَتِ الأهرامُ عنها وأطنَبَت فَعانَيتُ ثُكلًا لا يُقاسُ بِه ثُكلُ

ويَسترسِلُ فيقول:

سلامٌ عَلَيكُم آلَ دِجلَةَ إنَّني لِهَولِ الذي تَلقَوْنَ باكٍ ومُعتَلُّ
أفي شَهرِ آزارٍ وآزارُ رَوضَةٌ يَثورُ بها في بَغيهِ ذَلِكَ الصِّلُّ

ومِمَّا قالَ:

وَرَدتُكِ مطعونًا تَثورُ جروحُه فكانَ بَنوكِ الأكرَمونَ أطِبَّائي
لِحُبِّكِ يا بَغدَادُ والحُبُّ أهوَجٌ رَأَيْتُ فَنائي فيكِ مَشرِقَ إحياءِ

وإذا فارَقها ودَّعها وداعَ مكلوم الفؤاد فقالَ:

أبَغدادُ هذا آخِرُ العهدِ فاذكُري مَدامِعَ مفطورٍ على الحُبِّ بَكَّاءِ
أبَغدادُ يُضنيني فراقُكِ فاذكُري لدى ذِمَّة التاريخِ بَيني وإضنائِي

وقالَ نثرًا:"قَدِمتُ بغدادَ في أسمالِ الأشقياء، وسَأُفارِقُ بغدادَ وعلى رأسي تاجُ البيان. ليتَ قومي يعلمون.. ليت قومي يعلمون أن كرَمَ العراق فَوقَ الأوهام والظُّنون. ليت قومي يعلمون لأيِّ الأسباب تَظفَرُ مِصرُ بثقَة العراق".

ويشطُّ في دعواه حتَّى يُجافي السَّداد، وإن صدقَ في الاستفتاح، فيقول:" إنَّ المصريِّينَ يَفِدونَ إلى العراق ولَيسَ في صدورهم ثَروة غير الحُبِّ، ومن أجل هذا يُحَبُّهم العراقيون،

فإن سَمِعتُم أنَّ مِصريًّا شَقِيَ في العراق فاعلَموا أنه مِصريٌّ مُزَيَّف، ومصرُ يكثُر في أهلها التَّزييف، مع الأسَف الموجِع".

أما هو فما رأى من راضٍ عن مقامه في العراق من المصريين إلا ارتابَ في عقله، فإن لم يكُن في عقله ففي ضميرِه، وذَكَّرَهُ ذلكَ المتنبي حيثُ يقول:

تَصفو الحَياةُ لِجاهِلٍ أو غافِلٍ عمَّا مضَى فيها وما يُتَوَقَّعُ

وَلِمَن يُغالِطُ في الحقائِقِ نفسَهُ وَيَسومُها طَلَبَ المحالِ فَتَطمَعُ

وحيثُ يقولُ:

ذو العَقلِ يَشقى في النعيمِ بِعَقلِهِ وأخو الجهالَةِ في الشَّقاوَةِ يَنعَمُ

وعلى قلَّة من رأى من الراضين، فقد وَجَدَهم ما بينَ مُغَفَّلٍ كالدابة، لا يعنيهِ إلا أن يَنظُرَ تَحتَ قَدَمَيه إن حَرَّكَتهُ هِمَّةٌ لنَظَر، ولا شأن له بما يَعتَلِجُ حَولَه من مدِّ الحياةِ وجَزرِها، وبينَ متغافلٍ عن أصوات ضميرِه مُمالئ للسُّلطَة على سَفَهِها، حتَّى إنَّ منهم مَن انضَمَّ لحِزب البعث وهو في ذلك الوقت من المحَرِّضينَ على مِصرَ، المؤَلِّبين على استِهجانها ومُقاطَعَتِها.

أمَّا رابِعة الفئات التي أثنَت على بغدادَ فهيَ فئة أهلِها الذين علموا من عيوبها ما يعلَمُهُ الابن البار من عيوب أمِّه، فلم يمنعه هذا من إيلائِها الوِدادَ رَدًّا على ما غَذَتهُ من لبانها وحاطتهُ من حدبٍ حتَّى استوى على عوده، وندرَ أن يمحَضها تمام الرِّضا ويحنَّ إليها من أولئك أحدٌ حنينَ إسحاق الموصلي من قديم:

أتَبكي علَى بَغدادَ وهيَ قريبَةٌ فَكَيفَ إذا ما ازْدَدت عنها غدًا بُعدا
إذا ذَكَرَتْ بَغدادَ نفسي تَقَطَّعَتْ مِنَ الشَّوقِ أو كادَت تَموتُ لها وَجدا

أو حنين ابن الرُّومي:

بَلَـدٌ صَحِبتُ بِهِ الشَّبيبَةَ والصِّبا وَلَبِستُ ثَوبَ العَيشِ وهوَ جَديدُ
فـإذا تَمَثَّـلَ فـي الضَّميـرِ رَأيْتُـهُ وَعَلَيهِ أفنانُ الشَّبابِ تَميدُ

أو حنين السَّياب في الحديث:

لـو جِئـْتِ في البَلـَد الغَريـ ـبِ إلَيَّ مـا كمـلَ اللِّقـاءْ
الملتَـقى بِـكِ والعِـرا قُ علـى يـدَيَّ هـُوَ اللِّقـاءْ
شـَوْقٌ يخـَصُّ دَمـي إلَيْـ ـهِ كـأنَّ كـُلَّ دَمـي اشْتـِهاءْ
جـُوعٌ إلَيْـهْ كَجـوعِ كـُلِّ دَمِ الغَريـقِ إلى الهـواءْ

ومِن قبيلِهِ قَول محمد رِضا الشَّبيبي:

وفي أرضِ بَغـدادٍ هـَوَاءٌ هـُوَ المنـى وَعَيْشٌ هُوَ السَّلوَى وماءٌ هُوَ الخَمرُ
أأنسَى زَمانَ الكَرخِ والكَرخُ معرسٌ وَتَذهَبُ عَن ذِكري الرَّصافَةُ والجِسرُ
هـَوَى البَحـثِ أقصـاني ومـا ليَ أبَى اللهُ عنْ زَوراءِ دِجلَةَ مُزوَرُّ
مَتَى خُنتُ بَغدادًا وبَغـدادُ بَلدَةٌ إذا رُمْتُ عنها الصَّبرَ خانَني الصَّبرُ

ويَقولُ الدكتور حسين علي محفوظ:

بَغـدادُ بُـرجُ الأوليـا ءِ تَعانَقـَت فيـهِ الكواكـِبْ

غـــــَنَّى الزَّمـــــانُ بِمَجدِهـــــا وَحـــَـدَتْ بمـــِدحَتِها الرَّكائـــِبْ
دامَـــــــتْ جَبيــــــنًا لِلفَخـــــا رِ ومَفـــــرِقًا لـــِذَرَى الـــذَّوائِبْ
دانــــــَتْ لِهَيْبَتِهــــــا الدُّهــــــو رُ وَعِزُّهـــا الشـــَّمَّاخُ غالِـــبْ
مـــــَنْ ذا الـــــَّذي يَســـــطيعُ أن يَرقَـــى إلى تِلـــكَ الغـــَوارِبْ
دارُ المعـــــــالي والمكـــــــا رِمِ والعَـــــزائِمِ والمناقِـــــبْ

ويقولُ السيد علي الحيدَري:

بَغـــدادُ يا جنـــَّةَ الدُّنيـــا وقِبلَتَهـــا ومُلتـَقَى كـُلِّ فِكرٍعـَمَّ وازْدَهـَرا
لـَو طُفـتُ في مَشـْرِقِ الـدُّنيا وَمَغرِبِهـا مُحالِفـًا بِمَسـيري السـُّهْدَ والسـَّهَرا
لَمـا حـَلا مـَوطِنٌ في ناظـِرِيَّ ولا هـَزَّ المشاعـِرَ مـِنِّي بـارِقٌ خَطـَرَا

ويقول:

كَحَلـَتْ مَكاحِلُهـا جُفـونِيَ بالمـنى فَحـــَلُمتُ بالعبقـــاتِ والأورادِ
وَتَجَمـَّعَ الأَمـَلُ النـَّدِيُّ علـَى فَمـي لِأَصـوغَ مِنـهُ قـِلادَةً لبـِلادي
وسـَكِرتُ مـِن خَمـَرِ الفـُراتِ وَدِجلـَةٍ لِأَهـيمَ مِثـلَ فـَراشِ هـذا الـوادي
وسَكَبـتُ ألحـاني يخـُضِّبُها دَمـي وَتخـَذتُ مـِنْ أعـوادِهِ أعـوادي

ويقول:

يا أختَ بَغدادَ هَلْ ظِلٌّ بِمَغناكِ بِهِ أُعيدُ الصِّبا لِلخافِقِ الشاكي

وهَل تَعودُ لَيالٍ طالَما طَرِبَت لها المِسامِعُ واستَمرَى بِها الحاكي

ثُمَّ يَقول، وليتَ شِعري أيُّ شَيءٍ نافِعُه إن استُجيبَ لَهُ:

خُذي حَياتي خُذي سَمعي خُذي بَصَري وَهاتي لي نفحَةً مِن طِيبِ رَيَّاكِ

(8)

ويَنضوي آخَرونَ على تبَصُّرٍ يتراوحُ بَينَ السُّخطِ والمِعْتَبَة، فَيُغالِبُ أحَدُهما الآخر في أطواءِ أنفُسهم، علَى قَدر الأذى الذي تَعَرَّضَ لهُ الشَّاعِرُ أو استشعارِهِ أليمَ وَقعِهُ على غيرِهِ.

يقولُ الزَّهاوي في بَغدادَ:

كانَـتْ محَـطًّا للعلـومِ وأهلِـها ... وَقـرارَةً لِلمَجـدِ والإيجـادِ
اليَـومَ هاتيـكَ العلـومُ بِأسرِهـا ... مَدفـونَةٌ بِمقـابِرِ الأجـدادِ
أيَّـامَ مَـدَّ الأمـنُ وارِفَ ظِلِّـهِ ... فيهـا فَكانَـتْ جَنَّـةَ المرتـادِ
أيَّامَ بَغـدادٌ تُضـيءُ جَميلَـةً ... فَتَلـوحُ مِثـلَ الكَوكَـبِ الوَقَّـادِ
أيُعـادُ مـا قَـد مَـرَّ مِـن عُمرانِـها ... أم ذَلِـكَ العُمـرانُ غَـيَرُ مُعـادِ
لا تَرجِـعُ الرَّغبـاتُ صَـوبَ عِراصِـها ... أو تَرجِـعُ الأرواحُ لِلأجسـادِ

ويقول في موضع آخر:

لَقَدْ كُنتُ في دَربٍ بِبَغـدادَ ماشِيًا ... وبغـدادُ فيها للمُشاةِ دروبُ
فَصادَفتُ شَيخًا قد حَنا الدَّهرُ ظَهرَهُ ... لـهُ فَـوقَ مُسـتَنِّ الطَّريـقِ دَبيـبُ
علَيـهِ ثِيـابٌ رَثَّـةٌ غـَيرَ أنَّـها ... نظافٌ فَلَم تَدنَس لَهُنَّ جيوبُ
تَـدُلُّ غُضونٌ في وَسيعِ جَبينِـهِ ... على أنه بين الشيوخِ كَئيبُ
يَسيرُ الهُوَينَى والجَماهيرُ خَلفَـهُ ... يَسُبُّونَّهُ والشَّيـخُ لَيسَ يُجيبُ

لَهُ وقفَةٌ يقـوَى بِها ثمَّ شَهقَـةٌ تَكادُ لَها نَفسُ الشَّفيـقِ تَذوبُ
تَساءَلتُ مَن هـذا فقالَ مُجـاوِبٌ هُوَ الحَقُّ جاءَ اليَومَ فهوَ غَريبُ
فَجِئـــتُ إلَيـــهِ ناصِـــرًا ومـــؤَازِرًا ودَمعي لِإشفاقي عَلَيهِ صَبيبُ
وقُلتُ لهُ إنَّا غريبانِ ها هُنا وكُـلُّ غريبٍ لِلغَريبِ نَسيبُ

ويقول معروف الرَّصافي:

شـــَقاءٌ تَمَطـــَّى في العـــراقِ تَمَطِّيـــا وألقى جرانًا لا يُزَحزَحُ واستلقَى
فَإنَّ العراقَ اليَومَ قد نَشبَت به نيوبُ الدَّواهي فهيَ تَعرقُهُ عَرقا
تَمَشَّـت بِهِ حتَّى أعادَت سوادَهُ بَياضًا ومَدَّتْ لِلبوارِ بهِ رِبقـا
فَلَهفي علَى بَغدادَ إذ قد أضاعَها بَنوها فَسُحقًا للبنينَ بِها سُحقـا
جَزَوها عُقوقًا وهيَ أُمٌّ كريمَةٌ وَألأَمُ أبنـاءِ الكَـريمَةِ مَن عَقَّـا
أدامَت لها الأحداثُ مَخضًا كَأنَّها قَـد اتَّخَذَتها الحادِثاتُ لها زِقَّا
سَأبكي عَلَيهـا كُلَّمـا جُـلتُ سـائِحًا وشاهَدتُّ في العمرانِ مَملَكَةً تَرقَى
وأنـــدُبُها عِنـــدَ الأغاريـــدِ شـــارِبًا مِنَ الدَّمعِ كأسًا لا أُريدُ لها مَذقا

ويقول، وقد تَنَكَّرتْ له فما نالَ مِنها القوتَ والملبَسَ إلَّا بالكاد، حتَّى ليلتمس معَ فضلِهِ ثوبًا من رئيس الوزراء عبد المحسِن السَّعدون المنتَحِر فيما بعد والذي يوشِكُ أن يَرِدَ خَبَرُه مع هذهِ الأصداء شاكِيًا رَثَاثَةَ ثيابِه:

أعَبدَ المحسِنِ السَّعدون إني أراكَ مناطَ أسبابِ الرَّجاء

وأُبصِرُ مِن فعالِكَ بَدرَ تِمٍّ يُلَألِئُ مِن فَخارِكَ في سماءِ
لِذَلِك قد أتيتُ إلَيكَ أشكو رَثاثَةَ بزَّتي وبِلَى كِسائي
فقَد رَقَّت ثيابي اليَومَ حتَّى تكادُ تَذوبُ مِن مَسِّ الهواءِ
غَدَتْ شَفَّافَةً حتَّى كأني لَبِستُ بِهِنَّ أسبابَ الرِّياءِ
ولَيسَ العُريُ مِنْ ثَوبٍ مَعيبًا لِكاسي النَّفسِ مِن حُلَلِ الإباءِ
وما ضَرَّ المِهَنَّدَ فقدُ جَفنٍ إذا ما كانَ محمودَ المِضاءِ
فَإن لَم تُدرِكِ الأيَّامُ عُريى بِثَوبٍ مِنكَ يا غمرَ الرِّداءِ
لَبِسْتُ قَرارَ بَيتي في نَهاري ولم أخلَعهُ إلا في المساءِ

يَقول:

مَعاهِدُ عنها ضَلَّ سابِقُ عِزِّها فَهَل هُو مِن بعد الضَّلالَةِ مُهتَدِ
أحاطَتْ بها الأرزاءُ من كُلِّ جانِبٍ إلَى أن مَحَتها مَعهَدًا بَعدَ معهَدِ
وَحَلَّقَ في آفاقِها الجورُ بازِيًا مُطِلًّا علَيها صائِتًا بالتَّهَدُّدِ

ويُفصِحُ أكثرَ حَيثُ يقول:

أيا سائِلًا عنا بِبغدادَ إنَّنا بَهائِمُ في بَغدادَ أعوَزَها النَّبت

ويستطرد:

فَنَحنُ أناسٌ لَم نَزَل في بِطالَةٍ كأنَّا يهودٌ كَلُّ أيَّامِنا سَبتُ
خَضَعنا لِحُكَّامٍ تَجورُ وقد حلا بِأفواهِها مِن مالِنا مَأكَلٌ سُحتُ

وينعي وَطَنَه وأهليه نَعي مَن لا يرى فيه رجاءً ولا يرتَقِب منه نَصَفًا، وهو مما أملاهُ على زكي مبارك:

قد كانَ لي وَطَنٌ أبكي لِنَكبَتِهِ واليَومَ لا وطَنٌ عِندي ولا سَكَنُ
ولا أرى في بلادٍ كُنتُ أسكُنُها إلا خُثالَةَ ناسٍ قاءَها الزَّمَنُ

ويُمعِنُ في التَّفَجُّع والتَّثريب، وقد آذاهُ أن تُفَوَّقَ إلَيهِ ظِنَّةٌ جائِرَةٌ مِن قَومِه ، فهوَ يُدافِعُهم ويُكايدونَه:

تَبَسَّمَت البِلادُ بِكُلِّ أرضٍ وما زالَ العراقُ بِهِ قُطوبُ
فها هُوَ مِنْ تَكاسُلِ قاطنيهِ تجَرُّ عَليه كلكَلَها الخُطوبُ
إذا تدعو الرِّجالَ بِهِ لخَيرٍ يُجيبُكُ مِن تَخاذُلِهم مُجيبُ
فَيا لَهَفي على بَغدادَ أمسَت مِنَ العُمران ليسَ لها نَصيبُ
سأبكي ثمّ أستبكي عَلَيها إذا نَضبَت مِن العَينِ الغروبُ
أيا بَغدادُ لا جازَتْكِ سُحبٌ ولا حَلَّت بِساحَتكِ الجُدوبُ
تَطاوَلَ ساكِنوكِ عَلَيَّ ظُلمًا فَضاقَ عليَّ مَغناكِ الرَّحيبُ
وَكَم نَطَقوا بِألسِنَةٍ حِدادٍ يَسيلُ بها مِنَ الأحداقِ حُوبُ

رَمـــانِي القـــومُ بالإلحـــادِ جَهـــلًا وقالـــوا عِنـــدَهُ شـَـكٌّ مُريـــبُ
ألا يا قـــومُ ســَوفَ يجـَـدُّ جـِدِّي وسـَوفَ يَخيـبُ مـِنكم مـَن يَخيـبُ
فَمـَنْ ذا مِنـــكُمُ قـَـد شـَقَّ قَلـبِي وهـــل كُشِفـَـت لكـُـم فِيَّ العيـــوبُ

ويجهَرُ بالمشاقَّة جَهرَ المكلومِ الشَّفيق:

إلَيـــكِ إلَيـــكِ يـــا بَغـــدادُ عَنـــِّي فـــإنِّي لســتُ مِنـــكِ ولَســتِ مـِنِّي
ولَكِنـِّــي وإنْ كَبـــرَ التَّجَنـــِّي يَعـــزُّ عَلـــَيَّ يـــا بغــــدادُ أنِّي
أراكِ علـــى شـَـفا هـــَولٍ شَديـــدِ تِتابَعـَـت الخطـــوبُ عَلَيـــكِ تـــترى
وبُـــدِّلَ مِنـــكِ حُلـــوُ العـَيْشِ مـُرَّا فَهَـــلَّا تُنجبيـــنَ فـَتًى أغَـــرَّا
أراكِ عَقمـــتِ لا تَلِـــدِينَ حُـــرَّا وكُنـــتِ لِمثلـــِهِ أزكـَـى وَلـــودِ
أقـــامَ الجَـــهلُ فيـــكِ لـــهُ شـُهودا وســـامَكِ بالهـــوانِ لـــهُ السـُّجودا
مـَتى تُبـــدينَ مِنـــكِ لـــهُ جُحـــودا فَهَـــلَّا عُـــدتِّ ذاكِـــرَةً عُهـــودا
بهـــِنَّ رَشـَـدتِّ أيـــامَ الرَّشيـــدِ زمـــانَ نُفـــوزُ حُكـــمِكِ مُستَـــمِرُّ
زَمـــانَ سـَحابُ فَيْضـِـكِ مُستـَـدرُّ زَمانَ العِلـم أنتِ لـهُ مَقَـرُّ
زَمـــانَ بنـــاءُ عـــِزِّكِ مُشمَخِـــرُّ وبـــدرُ عـُلاكِ في سـَعدِ السـُّعودِ
بَرَحـــتِ الأَوجَ مَيـــلًا لِلحَضيـــضِ وضـِقتِ وكُنـتِ ذاتَ عُلـًى عـَريضِ
وقـَد أصـبَحتِ في جِسـمٍ مـَريضِ وكُنـتِ بِأوجُـهٍ لِلعِزِّ بِيضِ
فَصـــِرتِ بِأوجـــُهٍ لِلـــذُّلِّ ســـودِ تَـرَقَّى العـالَمونَ وَقَد هَبَطنـا

وفي دَركِ الهــــوانِ قـــدِ انحَطَطْنـــــا وعــَن سـَنَنِ الحَضــارَةِ قـَد شـَحَطنا
فَقَطنـَا يا بَني بَغـدادَ قَطنـَا إلَى كــَم نحــَنُ في عَصــــرِ القـــرودِ

وهوَ المعنى الذي لا يَنفَكُّ يُكَرِّرُه:

فَــــدَعني والفَخــــارَ بِمَجــدِ قــَومٍ مَضَى الزَّمَنُ القديمُ بِهُم حَميـدا
قـَد ابتَسـَمَت وجــوهُ الــدَّهرِ بيضـًا لَـهُم ورَأيننـا فَعَبَسنَ سُــودا
وقـَــد عَهــدوا لنـــا بــِتُراثِ مُلـــكٍ أضَعنــا في رِعايَتِـهِ العـهودَا
وعاشــــوا ســــادَةً في كُــــلِّ أرضٍ وعِشنا في مَواطِنِنـا عبيـدا
إذا مـــا الجَهـــلُ خـَيَّمَ في بـــلادٍ رأيتَ أسودَها مُسِخَتْ قـرودا

ويقولُ:

إلى كــَم أستَغيــــثُ فـــلا مُغيـــثُ وَأدعـــــو مـــَن أراهُ فـــلا يُجيـــبُ
أقَمـــتُ بِبَلـــدَةٍ مُلِئــَتْ حُقـــودًا عَلــَيَّ فَكــُـلُّ مـــا فيـــها مُريـــبُ
أَمــُـرُّ فَتَنْظُــــرُ الأبصــــارُ شَـــزرًا إلَيَّ كَأنَّـــما قـــد مــَرَّ ذِيـــبُ
وكــَم مــِن أوجـُـهٍ تُبــدي ابتِســامًا وفي طـــَيِّ ابتِسامَتِـــها قُطـــوبُ
ســَكَنتُ الحـــانَ في بَلــَدي كــَأنِّي أخـــو ســَفَرٍ تَقاذَفــُـهُ الـــدُّروبُ
وَعِشـــتُ مَعيشـــَةَ الغـــُرَباءِ فيـــهِ لِأنِّـــي اليـــَومَ في وَطــَني غَريـــبُ

ويقولُ:

وَيلٌ لِبغدادَ مِمَّا سَوفَ تَذكُرُهُ عَنِّي وَعَنها اللَّيالي في الدَّواوينِ
لَقَد سَقيتُ بِفَيضِ الدَمعِ أربُعَها على جَوانِبِ وادٍ لَيْسَ تَسقيني
أفي المروءَةِ أن يَعتَزَّ جاهِلُها وَأن أكونَ بِها في قَبضَةِ الهُوُنِ
وأن يَعيشَ بِها الطرطورُ ذا شمَمٍ وأن أُسامَ بِعَيْشي جَدعَ عِرنيني

ويَناوِبُ الجَواهري بين الإعراب عنَ الرِّضا والإعراب عن السُّخط فيقولُ، وقد حمَلَهُ الغَبن على الهِجرة سنواتٍ غير قلائل في حِساب العُمر:

يا دِجلَةَ الخَيرِ يا نبعًا أُفارِقُهُ علَى الكَراهَةِ بَينَ الحِينِ والحِينِ
إني ورَدتُّ عُيونَ الماءِ صافِيَةً نَبعًا فَنَبعًا فَما كانَت لِتَرويني
وأنتَ يا قارِبًا تلوي الرِّياحُ بِه لَيَّ النَّسائِمِ أطرافَ الأفانينِ
وَددتُّ ذاكَ الشِّراعَ الرَّخصَ لَو كَفَني يُحاكُ مِنهُ غَداة البَينِ يَطويني

ويضرِب على ذلِكِ الوَتر مُرَدِّداً ما بين كُلِّ مجموعَةٍ ومجموعَةٍ مِن الأبيات ما يَذَكِّرُ بترجيعات عزيز أباظة:

يا دجلَةَ الخَيـر قد هانَت مطامِعُنا   حـتَّى لأدنىَ طِمـاحٍ غَيـّرُ مَضـمونِ
يا دِجلَةَ الخَيـرِ يا أطيافَ ساحِرَةٍ   يا خَمرَ خابِيَةٍ في ظِلِّ عُرجـونِ
يا دِجلَةَ الخَيرِ ما يُغليكِ من حَنَقٍ   يُغلي فُؤادي وما يشجيكِ يشجيني
يا دِجلَـةَ الخَيـرِ والدُّنيـا مُفارِقَةٌ   وأيُّ شَرٍّ بِخَيرٍ غَيـرُ مَقـرونِ
يا دِجلَـةَ الخَيرِ كم مِن كَنزِ مَوهِبَةٍ   لَدَيكِ في القُمقُمِ المسحورِ مَخزونِ
يا دِجلةَ الخَيـرِ إنَّ الشِّعرَ هَدهَدَةٌ   لِلسَّمعِ ما بَينَ تَـرخيمٍ وتَنـوينِ
يا دِجلَـةَ الخَيرِ ما أبقَيْتُ جازِيَةً   لَمَ أقضِ عِنـدي مِنها دَينَ مَديونِ

ومِنها المتَتابِعُ:

يا دِجلَـةَ الخَيرِ هَلَّا بَعض عـارِفَةٍ   تُسدَى إلَيَّ علَى بُعدٍ فَتَجزيـني
يا دِجلــَةَ الخــَيرِ مَنّيــني بِعاطِفــَةٍ   وألهميـنيَ سُلوانـًا يُسَـلّيني
يا دِجلَةَ الخَيرِ مِن كُلِّ الأُلى خَبَروا   بَلـوايَ لم أُلـفِ حتَّى مَن يُواسيني
يا دِجلَـةَ الخَيرِ خَلّي الموجَ مُرتَفِقًا   طَيـفًا يَمُرُّ وإن بَعـضَ الأحاييـنِ

ويُنبئ عن اقتران دواعي الانجذاب ببواعِث النُّفور في نَفسِهِ تِجاهَ مَوطِنِهِ، فَيُغَرِّدُ كاشِفًا عن مَيل العراقيين إلى مُقارَعَة الكأسِ:

يا سَـكتَةَ المـوتِ يا إعصـارَ زَوبَعـَةٍ   يا خنجَرَ الغَدرِ يا أغصانَ زَيتـونِ

يا أُمَّ بَغـدادَ مِـن ظـَرفٍ ومـن غـنَجٍ مَشَى التَّبَغـدُدُ حتَّى في الدَّهاقِنِ
يا أُمَّ تِلـك الـتي مِنْ"ألـفِ لَيلَتِهـا" لِـلآنَ يَعبِـقُ عِطرٌ في التَّلاحينِ
يا مُسـتَجَمَّ النُّـواسِيِّ الـذي لَبِـسَت بِهِ الحَضارَةَ ثَوبًا وشيَ هـارونِ
الغاسِـلِ الهَـم في ثَغـرٍ وفي حَبـَبٍ والمِلبِس العقلَ أزياءَ المِجانينِ

ثُمَّ يقول:

ما إنْ تَـزالُ ثيابُ البَغيِ نـاقِعَةً في مائـِكِ الطُّهـر بـَينَ الحـين
ووالِغـات خيـولُ البـَغيِ مُصـبِحَةً على القُرى آمناتٍ والدَّهاقِنِ

وتعلو نبراتُهُ بينَ القَدحِ والمِدحِ حتَّى لا يكادا يفترقان، فيقول:

كَفَـى العبَّـاسَ مـا أبقَـتْ بنـوهُ فَمـا تَـربو علـَى بَغـدادَ مِصـرُ
مَضـَوا غُـرَّ الوجـوهِ وخَلَّـدَتْهُم نِقـاباتٌ مـِن الآثـارِ غُـرُّ
فَمـَنْ يَـكُ ذِكـرُهُ حَسـَنًا جميـلًا فَحَسـبُ القـَوم في بَغـدادَ ذِكـرُ
فيا بَغـدادُ لا يَنفَكُّ سِرٌّ لِحُسنِـكِ يَنجَلـي فَيـدِقُّ سِـرُّ

ثُمَّ لا يلبَثُ أن يقولَ:

فيـا وَطَنـًا جَفـَوهُ وهـوَ راضٍ وعَقَّتهُ بَنـوهُ وهـوَ بـرُّ
بِرغمـي أن تـروقَ لهـَم فَتحلـوا مَوارِدُهُـم وعَيـشي فيـكَ مُـرُّ
نَصـيبي مِنـكَ دَمـعٌ لـيسَ يَرقـَى علـى البـلوى وجَنـبٌ لا يَقَـرُّ
رِضـًى بالحـالَتَينِ ضَـنًى وَبـُؤسٌ فَضُـرٌّ مِن بلادي لا يَضُـرُّ

وَلَستُ بِبائِعٍ أرضي بِأَرضٍ ... وإن لَمَ ألْقَ فيها ما يَسُرُّ
ومَن لَمَ يَرَضَ مَوطِنَهُ مَقَرًّا ... مِنَ الدُّنيا فَلَيْسَ لهُ مَقَرُّ
تَتابَعَت الخُطوبُ على بِلادي ... فَواحِدَةٌ لِواحِدَةٍ تُجَرُّ
وقَد مَرَّتْ نحُوسٌ واستَمَرَّت ... وَذُلُّ القَوْمِ نحَسٌ مُستَمِرُّ
فَلَو قالوا تَمَنَّ لَقُلتُ يومًا ... يَكَرُّ وما بِهِ خَطبٌ يكرُّ
إلَيْكِ الشِّعرَ يا بغدادُ عِقدًا ... تَناسَقَ لؤلؤٌ فِيهِ وَدُرُّ
بَيَانٌ جاشَ فِيكِ فَجاءَ عَفوًا ... وحُسنٌ رَقَّ مِنكِ فَرَقَّ شِعرُ

وهوَ هُوَ القائِلُ، ولم يُبَعِّد:

ضَيفَ العِراقِ نَعِمتَ مِن خَيراتِه ... وَحمَدتَّ فيهِ قَرارَةً وهُجوعا
إنْ تُعقَدِ الحَفلاتُ كُنتَ مُقَدَّمًا ... أو تُنبِرِ الأُمراءُ كُنتَ قَريعا
وأظُنُّ أنَّكَ لَو نَمَتكَ ربوعُهُ ... لَشكَوتَ مِنهُ فؤادَكَ المصدوعا
وَلَكُنتَ كالشُّعراءِ مِن أبنائه ... ممَّن تُجوهِلَ قَدرُهم فَأُضيعا

ويقول:

بَغدادُ والتَّاريخُ ذو أشطُرٍ ... وشَرُّ شَطرَيهِ عهودُ الجِمام
يَغدو بهِا المدرِكُ ما لا يُرام ... مُيَسَّرَ المأخذِ سهلَ المرام
يَغفو على المجدِ وأحلامِهِ ... حتَّى إذا الغرورُ مِنَّاهُ نام
حتَّى إذا صَحا رَأى كَوكَبًا ... في كَفِّهِ أصبَحَ بَرقًا يُشام

ويقول:

حَبَّـــذا دِجلَـــةُ وعـــَن جانِبَـــيها تَتَمَشَّى الظِّلالُ جَنبًا لِجَنبِ
إنْ تَســـَلني عـــَنِ الزَّمـــانِ وَأهليـــ ـهِ فَإنِّي طَبٌّ بِهِم أيَّ طَـبِّ
عـيشِ كَمـا تَشـتَهي إذا كُنـتَ خِبـًّا والـزَم البَيـتَ إنِ تَكُـن غـَيْرَ خِـبِّ

ويقول:

وَطَـنٌ جَميلٌ وَجهُـهُ بَغـدادُهُ ورِضـــابُهُ مـــِن دِجلَـــةٍ مَعســـولُ
كَيـفَ السُّلوُّ ولَيـسَ تَبـرَحُ بُكـرَةٌ فيـــهِ تهـــَيجُ صَبـــابَتي وأصيـــلُ
إنِّي لَأشتـاقُ الفُـراتَ وأهـلهُ ويروقُنـــي ظـــِلٌّ عَلَيـــهِ ظَليـــلُ
وأُحـــِبُّ شاطِئَـــهُ ورَوعـــَةَ سَفحِـــهِ تَحنـو علـى الأمـواجِ فيـه نَخيـلُ
أشـفَى علـَى جـُرفِ المهالـِكِ مَـوطِنٌ بِيَدَيـهِ لا يَدِ غَيرِهِ مَقتـولُ
آلامـُهُ صَـــدعُ الشِّقـــاقِ بِأهلِـــهِ وَبـــــلاؤهُ الأوهـــامُ والتَّضليـــلُ

ويقولُ:

لا دَرَّ دَرُّكِ مـــِن ربـــوعِ ديــــارِ		قــُربُ المــزارِ بهــا كَبُعــدِ مــَزارِ
يهفــو الــدُّوارُ بــِرَأسِ مــَن يَشــتاقُها		ويُصــابُ وهــوَ يَخافُهــا بــدوارِ

ويقول:

أخــــو الشـــُّعورِ في العــــِرا		قِ ضــــائِعٌ مُضـــــطَهَدُ
يَحُـــــتُّ مــــِن فــــؤادِهِ		مـــا لا يحـــتُّ المِبـــرَدُ

ويقول الشَّبيبي في طبيعة العراقيّينَ شُبَّانًا وشِيبا:

شـــَبابٌ طائِـــشٌ نَـــزِقُ		وشِيـــبٌ مـــا بِـــهم رَمـــَقُ
وشَعــــبٌ طالِـــبٌ ثِقـــَةً		فَدُلُّـــوهُ بِمَـــنٍ يَثِـــقُ
فَفـــي آرائِنـــا شِيَـــعٌ		وفي أحزابِنـــا فِـــرَقُ

(9)

في سِعة الشُّقَّة ما بينَ مُرَفَّهي بغدادَ وأشقيائِها، وهو ما شَهِدَهُ بِنفسِه وأدرَجَتهُ الحَياةُ طَوالَ مقامِهِ هُناك في أشجاهما، ما قالَهُ الدكتور أحمد الوائِلي:

بَغـــدادُ يَومـــُكِ لا يـــَزالُ كَأمســـِهِ   صـُوَرٌ علـَى طـَرَفَي نَقـيضٍ تُجمـَعُ
يَطغـَـى النَّعــيمُ بِجانـــِبٍ وبِجانـــِبٍ   يَطغـَـى الشـَّقا فَمُرَفــَّهٌ ومُضـَـيَّعُ
في القَصـرِ أُغنِيـَةٌ علـى شـَفَةِ الهـَوَى   والكـُوخِ دَمـْعٌ في المَحـاجِرِ يَلـذَعُ
ومـِنَ الطـَّوَى جَنـبَ البَيـادِرِ صـُرَّعٌ   وَبِجَنـــبِ زِقِّ أبي نـــؤاسَ صـــُرَّعُ

أصبَح بوسعِه الآن أن يُقَرِّرَ أين يُقيم، وأصوَبُ من ذلكَ أن يقولَ إنَّه اضطرَّ إلى المقام حيثُ وَسِعهُ جَيبُه أن يُقيم، ولو شاءَ أن يَختارَ لما كانَ لهُ من الخِيَرَة ما يُوقِعُهُ على مكانٍ هو أصلَحُ من ذَلك للوالج الذي يُريدُ أن يَضَعَ يَدَهُ على قلب العراق ويسمَعَ دَفقَ نبضاتهِ.

إنها منطقَة (الباب الشَّرقي)، وينطِقُها العِراقيون على نحو ما سيَنطِقها مِرارًا معَ كراهِيَتِهِ أن يُبدِلَ من القافِ جيمًا (الباب الشَّرجي)، تِلكَ المِنطَقَةُ العَريقَةُ التي تَقَعُ في جِهَةِ الرَّصافَة بوَسَط بَغداد والتي اتَّفَقَ أن تكونَ من أعمر مناطِقها وأن تَلمَّ أطرافها؛ لكونها مَركَز التقاء وتوزيع المواصلات مِنها وإلَيها، وأن تَنتَظِم أكبَر وأشهر شوارعها وأسواقها ومقاهيها ومكتباتها ودُور السِّينما.

وفي مُنعَطَفٍ من مُنعطفاتِها يَقعُ نظَرُهُ على لافِتَة فُندق يَرتاحُ لمرأى مدخَله ويروقُهُ اسمُهُ (فُندُق النَّافورة الحَديث)، وهوَ كَلِفٌ بجميل المسَمَّيات، فيأخُذ في صعود درجاته التي سيوالي الصعود علَيها والنزولَ منها مَرَّاتٍ ومرَّات طوالَ وجوده ببغداد، لا يُفارِقُه إلا حسبما طَوَّحَ بِه العَملُ حتَّى يعودَ إليه، وسيَألَفُهُ صاحِبُه، فلا يَخذُله عندَ امتلاء غُرَفه بالصَّيف فيَعهد إلَيه بسرير فوقَ سَّطحه، يَطرَحُ جَسَدَهُ علَيه إذا خَيَّمَ على بَغدادَ الليل، وما أدراكَ بليل بغداد! فليس كمثلِه – فيما سيرَى – بين الليالي لَيل، حيثُ تكثُفُ ظلماؤهُ ويشعُرُ المرءُ باقتراب أرضِهِ من سمائِه أو انطباقِ سمائه على أرضه حتَّى لَيخال نَفسَهُ يَحتَضِنُ النُّجوم لقُرب مرآها من نظَرِه وشِدَّة لمعانها، فلم يكُ بِدعًا أن يستوليَ الفَلَكُ على أذهانِ البابليّين، وأن تكونَ من ألَحِّ موارد التَّنجيم، وهو مَظْهَرٌ خليقٌ بأن يُدخِلَ البَهجَةَ على النَّفس إلا أن تكونَ مكلومَةً، وسيوالي الشُّعورانِ عَزفَهما على أوتارِ قَلبِه، فَيَضيقُ بها كثيرًا ويَهنَأُ بها قليلًا.

ومن هُناك كانَ يُشَبِّكُ كَفَّيهِ تحتَ رأسِه ويَروحُ يَرمُقُها حتَّى يُكَحِّل النوم عينيه ويُسلِمهُ الرُّقاد إلى مَوعدٍ مع صباحٍ جديدٍ ودَّ لو لم يُطالِع وَجهَهُ لولا أنَّ الشَّمسَ كانَت تكيدُ لهُ وتلسَعُه وتُفَتِّحُ جَفنَيهِ عنوَةٍ وإنَّها لَتكادُ تُطبِقُ إطباقَ النُّجومِ أو أشَدَّ على الأرض، فينهَضُ لِتَلَقِّي نَصيبَهُ من الشَّقاءِ، هذا إذا امتلَأت الأسِرَّةُ، أما إذا ساعَفَه الحَظ فَمَرقَدُه سريرٌ بغرفَةٍ تتَّسعُ لاثنين أو لِثلاثَةٍ حسبَ سِعَتِها، وكانَ مُعظَمُ شاغِليها من المِصريّين، وأنتَ إذا تجاوَزتَ سلالِمَ المدخل جَبَهَتكَ رَدهَةٌ واسِعة يَتَصَدَّرُها راعي الفندُق.

على يمينك غُرفَة واسعَةٌ كانت لها شُرفَةٌ و كان يقيم بها – فيما يَرَى – عِراقيَّان يعودان من حيثُ كانا في هَزيعٍ من الليلِ وفي يَد أحدِهما قارورَةُ خَمرٍ، وعلى يَسارِكَ غُرفَةٌ مثلُها أو تنقُصُ عنها مساحَتُها قليلًا، في واجِهَتها دولاب بجوف الحائط، وعلى اليسار شباك كبير يُطِلُّ على الشارِع ولا يكادُ يَفتَحُه أحد، وقد وُزِّعَت بها ثلاثَةٌ أسِرَّة، سَيُقسَمُ له أن يشغَلَ أحدها، وأن يكونَ آخرَ عهدِه بها في العراق، وَمِنها سَيُساقُ إلى حيثُ لَن يَفتَرِشَ إلا الأرض بينَ حوائِطَ لا منفذَ إليها إلا من خيوطٍ تتَسَرَّب من بين قُضبان شباكٍ صغير يُقاربُ في ارتفاعِهِ أن يُلامِسَ السَّقف، ومن وجه سَجَّانٍ قميء أو هكذا رآهُ، وما كانَ لهُ أن يراهُ إلَّا كذَلك.

وإذا خَلَّفتَ الغُرفَةَ التي على اليَمين، فأمامك دَرَجٌ يهبِطُ بكَ عِدَّة دَركاتٍ لِتَجِد غُرفَةً مُعتِمَةً كانت موصَدَةً دائِمًا ويَنبَعثُ منها هَمساتٌ لم يكُن يرتاحُ إلَيها وكانت كذلِكَ على اليَمين، ويليها دورتان أو ثلاث للمياه تنفُثُ روائِحَ لا تقِلُّ شَناعَةً عن تِلكَ الهمسات، فإذا أولَيتها ظَهرَكَ تجاهَ ما كانَ على يَسارِكَ هابِطًا وقَعَ نَظَرُكَ على غُرفَةٍ تَتَّسِعُ لِشَخصَينِ، تُذَكِّرُك بكبائن السَّفر في القطار ولها نافِذَةٌ واحدَة مَطَلُّها على مَمَرٍّ ضَيِّقٍ مُعتِم لا يُنفِذُ إلَيها خيالٌ، وأبواب الفندُق في مُجمَله ونوافِذه من الخَشَب الصَّقيل الذي ترتاحُ العينُ لِمَرآهُ، لَكَأنَّما هو نبتُ الطَّبيعَة البِكرالصَّناع خرَجَ منها لِتَوِّه مُشَبَّعًا بِأريج الغاب، وهي تطولُ وترتَفع حتَّى ليَصلُحُ الشُّباكُ أن يكونَ بابًا فيما عدَاهُ ويُمكن أن يُصنَعَ مِن الباب بابان.

ومن شأن ذلكَ النَّمَط إذا قَدَّرتَ ارتفاعَ السَّقفِ أن يُدخِلَ على النَّفسِ الحَزينَةِ شَيئًا من السَّكينَةِ ونَفَسًا مِن الرَّوْحِ، وكأنَّما يُفسِحُ مِن مُنْغَلَقِها أو يُضائِلُ مِن شعورها بالحُبسَة والقَهر؛ لِعجز ذاتِ اليَد عن النفاذِ من قلَّة الحيلَة تجاهَ كَبَد العيش وتَنَكُّبِها الولوج إلى فَسحَة الأمَل وبَسطَة التَّفاؤلِ، كما أنَّ مِن شأنِهِ أن يَنسَمَ فيها حِسًّا قريبًا مِن استِشراف الفَرَج وسَلاسَة الرَّواح.

وقد كانَ يطيبُ له أن يَجلسَ هُنيهات في تلك الرّدهة، يُطالِعُ الوجوه ويتَأمَّل القَسَمات؛ لَعَلَّهُ يَجدُ السَّلوى فيمَن لَذَعَهُ منَ العُسرِ ما لَذَعَه، أو يستعينُ على كآبَتِه بِمَن يَلمَحُ في سِماتِه خيًّالًا منِ البشر، وسيقعُ نظرُهُ مِرارًا على إخوةٍ من المصريّين الذين حَصَرَهُم العوزُ فلم يجدوا بطاقَة العودة بعدَ إقامَة أشهُرٍ في العراق يُقضّي أحدهم يومَهُ كُلَّهُ على لفافَة بسكويت يِقسمها حتَّى تَسَعَ وجباتِه الثلاث.

وإنَّ أهلَهُ بِمصرَ ليَحسبونَه في رفاهٍ وفسحَةٍ من العَيش، وكانَ ذلِكَ يُضاعِفُ مِن حَزَنِه، فإذا التَمَسَ من يَشارِكُهُ ميولَهُ أو ينحو نحوَهُ في دروب الفِكر ومسالِكِ الحياةِ ساءَهُ ألاَّ يَقِفَ منهم على أحَد، وكان أكثَرُهم مِن الذين لم يَقطعوا شَوطًا كبيرًا من التَّعليم، فلَم يَلبَث أن انقطَع عن المكوثِ بالرّدهَة وآثَر عَلَيهِ، بعدَ انقضاءِ عَمَلِه عَصرًا، الجلوسَ بالمقاهي أو الجلوس تحتَ ظِلَّ شَجَرَةٍ بحديقَةٍ أو الطَّوافَ بالشَّوارِع ومُعايَنَة عروض دور السينما و المكتبات، وسيكونُ ذلِكَ مُتَنَفَّسَهُ طوالَ مُقامِهِ هُناكَ، فإذا صادَفَ منهُ النَّهارُ تَعَطُّلًا عن العَمل يَمَّم قاعَةَ المتحَف الوطني لِلفَنّ الحَديث، فطالَعَ من معروضاتِهِ للفنانين العراقيّين من أمثال"عطا صبري"ولِغَيرهم مِن

أمثال اليَمَنِيّ "علي غدَّاف"ما رفَّهَ عن نفسِه وزادَ حَصيلَتَهُ من الثَّقافَة الفَنِّيَّة وأطلَعَهُ على مناهِجَ جديدَةٍ للفنون وأساليبَ طَريفَةٍ في التَّعبير.

وثَقُل عليهِ أن يأتِيَ من العَمَل ما لا يَبَزُّ فيهِ الجُهلاءَ ولا يَرَى فيهِ وبيصًا من القريحَة، معَ شقاوَة الكَدحِ وثِقَلِ اللغوب وقِلَّة المجتَنَى، واجتَمعَ علَى قلبهِ المكلوم بُعدُ المزار من الأهل وجَفوَةُ النَّبوَةِ من الأغراب فراحَ يَندُبُ حَظَّهُ وينعى نفسَهُ، ولَم يَمضِ الكثيرُ مِن مقامِهِ، فيَنتَحي رُكنًا ويُحضِرُ وَرَقَةً وقَلَمًا فيقولُ فيما يُشبِهُ الأنينِ:

يَبَسَ السِّرارُ فَلَم يَجِفَّ لَهُ دَمي ... واهًا لِهذا الميِّتِ المتَنَسِّمِ

يَغلي النَّجيعُ أسًى عَلَى فُقدانِهِ ... ويَسيغُهُ ذِكْرُ الخُلودِ علَى فَمي

بَثَّ الدُّخانَ لُغًى علَى أطراسِهِ ... خَفَّاقُهُ المشبوبُ بَينَ الأعظُمِ

وَيَهيجُهُ أن قَد هَبَطتُ بِمَعشَرٍ ... أدناهُمُ أقصاهُمُ عَنْ مَنسمي

ما هامَ مِثلي في الطِّماحِ أوِ اشتَكَى ... غَمًّا يَغوصُ بِنابِهِ في الأجسَمِ

نجواكَ يا قَلبُ الخُفوقُ علَى جَوًى ... أبدَا يُوَقِّعُهُ بَنانُ تَكَتُّمي

شَطَّ المزارُ فَلا حَبيبٌ زائِرٌ ... نَفسي فَنَفسي مُؤنِسي ومُكَلِّمي

إنَّ المقِيمَ على الكآبَةِ بالنَّوَى ... أولَى بِحَرِّ خَريدَةٍ في مأتَمِ

تَبكي الرَّواحَ لَدى الفراقِ وعَيشُهُ ... أدعَى لِزَهقِ جَنانِهِ المتَبَرِّمِ

حَيُّ المماتِ بِفَقدِ كُلِّ عُلالَةٍ ... غَرَّاءَ في كَرِّ الزَّمانِ المظلِمِ

وَعَزاؤُهُ والهَولُ يُرعِدُ دونَهُ ... أنَّ المضاءَ إلى المكارِمِ يَنتَمي

كِبَـرُ النُّفوسِ لِجَـدِّ كُلِّ مُلِمَّةٍ مَدعًى وَمَهوًى لِلجُسومِ الحُوَّمِ
كَلَـفٌ بِهـا ألَّا يُنَهنِهَ طَرفَها غَيْمٌ ونورُ الشَّمسِ فَيْضُ تَضَرُّمِ

ويَصلُ إلَيه، وهوَ في هذا البُحران، رِسالَةٌ مِن أُمِّه ردًّا على أولى رسائِلِهِ التي استعجَلَ بها إرسالَ شهادَة التَّخَرُّج والمؤَرَّخَة بـ 17 /9/ 1977 يَجتَمِعُ لها في نفسِه شعورانِ مُتضارِبان، فهوَ الجَزِعُ الشَّفيقُ مِمَّا كَدَّرها بهِ مِن هَجرِهِ وانسياقِهِ وراءَ نُشدانِ تَلبِيَة طموحِهِ ومباعِث خَفضِه، وهو الجَذِلُ الطَّروب لِما استَشعَرَ – وقد كادَ يَنسى– مِن أنَّ وراءَهُ قَلبًا يَسَعُ الدُّنيا ويَضَعُهُ في اللُّباب ويَنفَتِحُ لهُ بالدعاءِ حَيْثُ انغَلَقَت علَيهِ الأرضُ وتَجَهَّمَت في وَجهِهِ مِنها الدُّروب وكَشَّرَت عن أنيابِها الرَّزايا، ومقامُهُ بينَ قَومٍ لا يُبالونَ بِتَكديرِهِ وغَمطِهِ، ويستوي لَدَيهم شَقاؤهُ وسَعدُه، وسيَرى مِن إغفالهم طلَبَه أن يَعملَ لَدَيهم مُدَرِّسًا للفنون، معَ كفاءَتِهِ وحاجَتِهم إلى تَخَصُّصِه، ما يؤَكِّدُ زَعمَهُ، وقد كانَ في قبولهم طلَبَهُ – لو شاءوا – حَثٌّ لخطواتِه في سبيل عَزمِهِ واختِزالٌ لِمُدَّة استِكراهِهِ على المقام فيهِم، وعَونٌ له في الإسراع بالرَّحيل، وهُم معَ ذلِكَ مُفيدونَ مِن خِبرَتِه في تشكيل وِجدانِ أبنائهم..

فَضَّ مظروفَ الرِّسالَةِ وبسَطَها أمامَهُ وراحَ يَنتَهِبُ بِنَظَرِهِ وقلبِه خطَّ والِدَتِهِ الذي يَعرِفُهُ مُنذُ كانَ صغيرًا: "ابني وحَبيبي محمَّد: بعد التَّحِيَّة والسَّلام، وَصَلَني خِطابُكَ واستَرَحتُ قليلًا عَن ذِي قَبل؛ فقد ذَهَبَت آلامي لأنَّ ما هُوَ أكبَرُ مِنها قَد غَطَّى عَلَيْها.. سامَحَكَ اللهُ يا مُحَمَّد..... نحنُ الآنَ وحدَنا أنا والولدانِ يتامَى مِن كُلِّ

شَيء، لَمَ تَجِفَّ لي دَمعَةٌ مُنذُ أن سافَرتَ.. حَرَقتَ قلبي يا محمد عليك وأنت حَي"وتأخُذُ في وصف حالتها وأنَّها تَذكُرُهُ كلَّما وضَعت في فيها اللُّقمة، فلا تكاد تسيغُها، وراحَت تَتَساءَلُ: تُرَى أجائِعٌ أنتَ أم طاعِم؟ فإذا ضَمَّها الفِراشُ ووَضَعَت جَنبَها علَيه أخَذَت تَتساءَلُ: أنائِمٌ أنتَ يا محمد، وإن كُنتَ فَتُرَى كَيفَ تنام؟ – رَحِمها اللهُ.. إنَّها الأمُّ التي سيرثيها عام 2008 فيكون من رثائِه:

يا غِيــاثي يــَومَ يَطمــو الضِّيــ ـــــقُ أَيـــــنَ المهـــــرَبُ
ضـــاعَ مـــِن كفِّـــي قيـــادي ضـــاقَ مِنـــِّي المذهَـــبُ

ويكونُ منه:

أُمَّتـــا أيـــنَ اختِـــلاجُ الـــ ـــخَفضِ أيْـــنَ الحَـــدَبُ
رَحـــمَةُ اللهِ لـــدى المكـــ ــــروبِ أُمٌّ وأَبُ

(10)

انقضت الأيام الأولى زاحِفَةً على صدره ، وكان معها في لهاثٍ من كدحِهِ يُعمِلُ سياطَ جَلَدِه في أسنِمة خيول الزَّمَن ويستَحِثُّ عَرَبَتَهُ إلى حَيثُ يرقُب وصولَ مُؤَهِّلِهِ من مصرَ.

وقَلَّبَ الفِكرَ فيما عسى أن يأخذَ فيه مِن ضروب العمَل، فلَم تُسفِر له إلا عن عَمَلٍ كُلِّ ذي وجهٍ أربَد غُفل القَسَمات لا يَرى إلَّا ما بينَ يَديهِ من حطام يتَلَهَّى به الخَلِيُّ، ويستوي في لأوائِه صاحِب الذِّهن الألمعيُّ وفاقِد التَّمييز، ولولا قُرب عهدِه بالتَّخَرُّج في الجامعة، وشَمَمٌ في نفسِهِ يَمنَعُهُ من التَّعَطُّل لانتظرَ حتى حَظي بمطلَبه ولكنْ هَبهُ انتظَرَ، أكانَ يَسَعُه أن يُنفقَ على ما لا بدَّ منه للجَسَدِ مِن مأكَلٍ أو مشرَب، بلْهُ التطواف الذي تُكَلِّفُه مواصلاتُهُ فَوقَ ذَينكَ ابتغاء الوقوف على وظيفَة مُعَلِّم؟

عَرَفَ في تلك الفترة مرارَة أن يُقَدِّم الطعامَ لمن يقصرُ عن عقابه – كفاء سوء طبعه – أن يُحرَم الطَّعامَ وأن يرفَد الأغرار مُهدري العُمر بالجلوس في المقاهي بالشاى والقهوة، وهو في غمرَة لهاثِه يُطالِعُ القسمات ويرصُد ما تلفِظُ به الأفواه وما تومِئُ إلَيهِ الأيادي والأكُفُّ ويُتَرجِمُ دلالات الحركات، فقنصَ في الزَّمَن القليل ما يستوجِبُ العُمرَ الطَّويل لإدراك طبائِع القوم، وشهِدَ من تكالُبهم على المأكل والمشرَب ما جعَلَهُ يغبطُ نفسَهُ على كونِهِ عابِرَ سبيل في تلكَ المهنة، وللشاي في العراق مع ذلكَ مَذاق لذيذ، لا يعود إلى نوعيته في ذاتِه، ولكن إلى طريقَة الإعداد؛ على النحو الذي يُسَمَّى (الشَّاي الكُشَري) أو (الشاي السنكين) الثقيل الغامق بالعراقية؛

ولاستشراء ذلكَ الشَّرَه بين البغداديّين كَثُرَت الزوايا التي تُقدِّمَه في مُنعطَفات الطُّرق، وكانَ وهو يَنتَظِر دورَه في احتساء كوبِه يَعجَبُ للبغدادي ونفاد صبرِه عن انتظار أن يتناوَلَ من بائِعِهِ كوبه الصغير المضغوط من وَسَطِهِ إلى الداخل والذي يدعونهُ بـ (الاستكانة ، إذ يروحُ يَمُدُّ يدَهُ بالثَّمَن ويصيحُ في البائع بصوت يملأ به ما بين شِدقيه ويفَخِّم مخرَجَ الشين " اتشاي .. اتشاي .. اتشاي يا ابو التِّشايات .. اتشاي .. اتشاي .. اتشاي .. فَد استِكانة ".

و (فَد) هذا لَفظٌ يضعه العراقيونَّ قَبلَ المفرَد النَّكِرَة ، فلا يكادُ يَكُفُّ عن الصِّياح حتى يَنتهِبَ الكوب الصَّغير بأنامِلِه، وكثيرًا ما كان يَصُّب منه في طبق الفنجان الصغير الذي يُقَدَّمُ إلَيهِ فَوقَهُ فَيَرشُفُ منه كما يفعَلُ الأطفالِ، فيكون من صورَتي جلافَتِه وتصابيه في آن واحد ما يبعَث على النفور، أما إذا كانَ الكوبُ أكبَر فهو الـ (جِلاس) بِبَصمة الإنجليز كما لا يَخفَى.

وقد عملَ في مَقهَى واسِع حديثٍ، ينقَّسِمُ إلى شَطرَين، أحَدُهما مُظَلَّلٌ بالدَّاخِل والآخَرُ مكشوف يُبينُ عن المدخَل ثم الشارِع، فكان يَستَروِحُ التَّنقُّل بينَهما؛ لِما يَجِد من تنَوُّعِ الظِّلال وَتَغَيُّر المطَّلَع، في حين ينبَعِثُ مِن شريطِ تسجيلٍ بالقِسم الدَّاخِليّ أغانٍ على مَدار اليَوم، منها المِصري لمحمَّد عبد الوهَّاب وأضرابِه، ومنها اللبناني وأغلَبها لفَيروز، ومنها العراقي لناظِم الغزالي وأضرابِه من القدماء ولسعدون جابر وأشباهه من المحدَثين، ويَحمَدُ الله على أن صاحِبَ المقهَى أو الموكَل إلَيه أمرُ التَّسجيلات كانَ راقِيَ الحِسّ؛ فلم تَقَعْ منها أُذناه على ما ينبو عن الذَوق وإلا وجدَ

في ترديدها – كما يَجِدُ لأغاني اليوم ذات الصَّلصَلَة النُّحاسيَّة والمعاني الرَّاكِدَة المبتَذَلَة التي تُفرَضُ عَلَيهِ في المواصلاتِ – ضَربًا مِن العَذاب.

يُضَيِّقُ علَيه ما اتَّسَعَ مِن آفاق الخيال ويكرِبُ أنفاسَهُ غَيرَ مُبالِغٍ؛ فَلَيسَ أكرَبَ لنفسِه من اللحن السَّيِّئ والصَّوت القبيح والمعنى الهابِط ، ورَغَّبه في ذلك المقهى أمور، هي على التوالي ذلك الطِّراز الذي يجمع بين القديم والجديد، وذلك الاسم الذي كانَ يداعب خياله، ويشعره بأنه غَيرُ مُنبَتٍّ عن حلبَة الأدب وأنَّه في محفل من جوقَة الشُّعَراء، إذ كانَ اسمه "عمر الخيَّام" ثُمَّ قربه من مقامِه بفندق النافورة الحديث.

وكانَ يَسَعُهُ بعدَ كدحِ اليوم أن يَغتَسِلَ فينفضَ أوصابه مع عرقه، وإنَّ للحرارَة في بغداد بالصيف لَنَشيشًا يُزهِقُ الروح ويُذهِلُ الذِّهنَ عن الخاطِر، حيثُ يبلغُ متوسِّطُها 41 درجَةً مئوية وتتصاعِد إلى 49 درجة، مع وَقدَةٍ للشمس يذكُرُ أنه كان يحثُّ خُطاهُ هَرَبًا منها، حتَّى ليكادُ يركض أثناءَ عبورِهِ من رَصيفٍ إلى الآخَر ويروح يحتمي بظلال المباني إذا عارَضَتها ابتِغاءَ النَّفاذ من الرَّمضاء، ثم هو يُغيِّر ثيابه، فينتصب شخصًا آخر تنفَسحُ نفسُه على استيفاء معاني إنسانِيَّتِه وتصحو شَهِيَّتُه ليُغَذِّي نفسَه مِن أطايِب الجمال، فيقصِدُ شارِع "أبو نواس" وقد انكسَرَت مع مقدم المساء حِدَّة الحرور وساعَفَ انزواءَها مَطَلُّه على نهر دِجلة ، ذلك الشارِع الذي تَمَّ شَقُّه عام 1934 والذي يُحاذي دِجلَةَ مِن ضفَّتِهِ الشَّرقيَّة ويبدَأ من حيثُ انتَهى شارِعُ الرَّشيد – الذي سبقَه إلى الوجود بثمانيةَ عَشرَ عامًا – إلى جِسر الجمهوريَّة

(الملكة عالية سابِقًا) فيبدأ من هناك مُمْتَدًّا إلى الجِسر المعَلَّق في منطقة الكرادة الشرقيَّة.

وكانَ يطيبُ له أن يُعاينَ دِجلَة وهو يَتَخَطَّرُ فوقَه فيرَى فيه ما يُصَبِّرُه عن مشهَد النيل وقد داعَبَت أنفَهُ روائحُ السمك المشوي (المسكوف) تنبَعِثُ من المقاهي التي كان منها البسيط ومنها الراقي وربما شاهَدَ فحمَه المستَعِر، وهو ينتصبَ حوله للشَيِّ، في فَحمَة الليل، فاكتفَى في عُسرِهِ بالشَّمِّ والنَّظَر ثمَّ راحَ يُواصِلُ سَيرَهُ فاستأنسَ بمرأى النهر الذي انعكست عليه أضواء الشَّاطئَين، ومعَ ذلكَ كان يبدو له –ولا يدري لماذا– حَزينًا وهو تُطِلُّ عليه أشباحُ الأشجار المتَّشِحَة بالسواد، لا تُهَدهِدُ من أشجانه ترنيمات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وناظم الغزالي تتردَّدُ على أثير ضفَّته حيثُ يسير فتكادَ تُحَرِّكُ الصَّخر.

فإذا رَفعَ رأسَهُ إلى السَّماء نافضًا مع تَنَهُّداتِه همومَه رأى من وبيص النجوم وغمزِها على مَدِّ البَصَر ما اهتاجَ في نفسِه سيَّالَ الشِّعر فأحسَّ لهُ دبيبًا بين أضلاعِه وطَفرَةً على شَفَتَيه فَمَدَّ يَدَه في جَيبِهِ وأخرج قلمًا صغيرًا كان يُبالِغ في جعلهِ هكذا حتى يواتيه الشِّعرُ طواعِيَةً ولا يفرِضُ عليه وجوده فيتعمَّل له، أو هكذا كان يُقَدِّر.

وانتحَى جانبًا أضاءهُ مصباح أحد أعمِدَة الطريق فَسَجَّلَ ما لم يَتَفَلَّتْ من خاطِرِهِ ، ولَفَتَ نظَرَه أنَّ رُوَّاد ذلكَ الطَّريق قليلونَ على الرَّغم مِمَّا يحشدُ مِن بواعِث التَّسريَةِ ، وسرعانَ ما تبَيَّنَ السَّببَ عندَما ساقَتهُ قَدماهُ إلى حيثُ اكتَشَفَ أنَّ على الضَّفَّة الأخرى قَصرًا شامِخًا، عَلِمَ أنَّه القصرُ الجمهوري، وعِندَهُ كانَ المارُّ مِن العراقِيّين إذا

وصَلَ إلى ذلكَ المدَى كَظَمَ أنفاسَهُ وهاب أن يمُدَّ بَصَرَهُ إلى هُناكَ تَهَرُّبًا مِن مُلاحَقَة عيون رجالِ الأمن.

وكانت لحِزب البعث الحاكم سطوة على رأسها حينَئِذٍ أحمد حسن البكر، ولن يحُدَّ منها – إنْ لم يَزِدها – استيلاء صدَّام حسين على مقاليد الحُكم، لِيُصبِحَ الرَّئيسَ الرَّابِع للجمهوريَّة عام 1979، بل كانَ مبعَثَها قَبلَ رِئاسَتِهَ بين عامَي 1975 و 1979، فقبضَ على زِمامِ الأمور في القطاعاتِ الحكوميَّة والقُوَّات المسَلَّحَة ، وكذا كانَ منذ أن تَوَلَّى دَورًا رَئيسيًّا في انقلابِ حِزب البَعث عام 1968 قادَهُ إلى تَسَنُّم الحُكم الذي سينزعه الأمريكان عنه نزعًا عام 2003 ويسوقونه من بعد إلى الإعدام .

وشدَّ انتباهَهُ على الطريق تمثال من البرنز يمثِّل شهريار وشهر زاد واقِفَةً قبالَته ، استوحاه الفنان محمد غني حِكمَت المولود بالكاظِمِيَّة عام 1929 من " ألف ليلة وليلة" – وسيعلَمُ عن وفاته في عمَّان عن اثنين وثمانينَ عامًا عام 2011 – وكانَ تَخَرَّجَ في معهد الفنون الجميلَة ببغداد عام 1935 وتابَعَ تدريبَه في أكاديميَّة الفنون الجميلَة بروما وتخَرَّج فيها عام 1959 كما دَرَسَ العمل بالمعادن فتَخَصَّصَ في صَبِّ البرونز بمعهد (دي زكا) في فلورنسا ليعملَ في وَقت لاحق مَدَرِّسًا للنحت في المعهد الذي تَخَرَّجَ فيهِ أوَّلًا وفي كلِّيَّة الهندَسَةِ المِعمارِيَّة التَّابِعَة لجامِعَة بغداد.

وقد نصبَ تمثالَهُ هذا عامَ 1971 واستلهَمَهُ من التراث البغدادي فجَسَّدَ شهر زاد مُنتَصِبَةً بجَسَدها الأنثوى اللدن وقد اتخَذَ ذراعاها مع حركات أصابع يدَيها صورة

مُعَبِّرَة عن هيئَة القاصِّ، وفي عينيها المجوَّفتين وَلَهُ التي تستعصِمُ بما تسرُد لتبقِيَ على حياتِها أمام الملك الغشوم وكأنما تترقرق مِن فيها الفاغر عبارتها الشهيرة: "بلغني أيها المِلِكُ السعيد ذو الرَّأي الرَّشيد" وأمامها على ارتفاع عِدَّة درجات جلَسَ ذلكَ على ما يُشبه السرير مُتَّكِئًا على وسادَة أسنَد إليها كوعَه الأيسَر وامتدت ذراعُه –التي سيقطعُ المعتدون يدها بعد الاجتياح الأمريكي– إلى جواره على نحوٍ يدُلُّ على استرخاء من يملك الأمر إذا شاء أن يُصدرَ حُكمًا، في حين وَضَعَ يَدَه اليُمنى مع انثناءَةٍ لذراعه على فخِذه اليُمنى وثنى ساقَهُ التي استندت إلَيها على سريرِه وأنزل اليُسرى عن السرير في انثناءَةٍ أخرى لتستقر قدَمُه في حركةٍ تدُلُّ على التَّمَكُّن، وهو في تصميمِه العام يُصَوِّرُ الفحولَة.

وقد ارتَدى زِيًّا بسيطًا يتَّفِق مع وضع الاسترخاء، وتنم انسيابية الخطوط وطيَّات الملابس على تأثُّرٍ عميقٍ للفنان بالنَّحت السومَري والأختام الأسطوانيَّة السومريَّة وما تطبَعه من أشكال مستَدِقة مستطيلةٍ فوقَ الطِّين، وقد أصبحَ ذلكَ أسلوبًا له في العديد من أعماله.

وكذلك يبدو فيه تَأثُّرُهُ بالآثار البابلية والتراث الأشوري ووَعيه بالثقافَة البغدادية في العصر العباسي، تلكَ التي مَثَّلَ منها أشهَر أساطير ألف ليلَة وليلة، فكان من منحوتاتِه غير هذا التمثال السندباد البحري وكهرمانة التي يُمَثِّلُها تَسكُبُ الزَّيت من جرَّةٍ في جرارٍ اختبأَ فيها لصوص علي بابا الأربعون في تمثال يُزيِّن أحد ميادين بغداد، ومنها تمثاله الذي استقرَّ تنصيبه بعدَ نقلِه من مَوضِعِهِ في الشَّارِع المسَمَّى

باسِمِ صاحبه، وقد جَسَّدَ فيه رجولة المتنبي وشَمَمَهُ ، فَمَثَّلَه مُنشِدًا يومئُ إلى معانيهِ بيَدِهِ اليُمنَى ويقبضُ بيسراهُ على معطَفِهِ شامِخَ الرَّأس، وسجَّل تحتَهُ بيتهُ الذَّائع :

أنا الـــذي نَظـــَرَ الأعمـــى إلى أدَبي   وأسمَعـَت كَلمـاتي مـَن بـهِ صـمَمُ

لم يُبَعِّد بهِ المسيرُ حتى وقَعَ نَظَرُهُ على تُحفَةٍ أخرى لفنَّانٍ عراقِيٍّ آخر نُصِبَت بعدَ الأولى بعامٍ، فرأى أمامَهُ أبا نوّاس كما تَمَثَّلَهُ إسماعيل فتاح التُّرك الذي وُلِدَ في البصرَة عام 1934 ودرسَ في معهد الفنون الجميلة ببغداد ثمَّ استوفى دراستَه بعد أن حصَلَ على بعثَّةٍ علمية للدراسة في الأكاديمية الإيطالية للفنون، فحصلَ على دبلومها العالي في النحت عام 1963، وعلى دبلوم في فن الخزف من معهد (سان جاكومو) في روما، وحازَ الجائزةَ الأولى للفنانين العرب في إيطاليا للرسم عام 1962 والجائزة الأولى للنحت في إيطاليا عام 1963، وسيتوج أعماله بنصب الشَّهيد الذي سيقيمهُ في بغداد عام 1983 قبل أن يوافيَهُ الأجَلُ عامَ 2004.

فإذا قيلَ له : " ليسَ لدينا شهداء بالحجم الذي يستدعي إنجاز نُصب بتكلفة عالية، فلمن تُنجِزُ عَملَكَ هذا؟ "كانَ ردُّه، وكأنما تَمَثَّلَ الغزو الأمريكي الجائر وما جرَّهُ من البلايا وجَندَلَ من آلاف الشُّهداء: "هذا للأجيال".

وقد قيلَ عنهُ إنَّهُ كانَ يَرسُمُ بروح النَّحَّات ويَنحَتُ بأسلوب الرَّسَّام، ولم يكُن مَع براعَتِه في الأداءِ يَميلُ إلى عنف الحرَكَة والخَوض في التَّفاصيل الدَّقيقَة؛ ولِذا كانَ يؤثِرُ النَّحتَ المِصريَّ القديم؛ لما رأى مِن وقارِهِ على النَّحت الإغريقِيِّ النَّزِق، ويُفَضِّل النحت الأتروسكي – معَ ما يَسِمُهُ مِن سذاجَةٍ – على النَّحت الروماني، وانعكس

ذلك الوسم على كل التماثيل التي زَيَّنَ بها ساحات بغداد، كتلكَ التي للرصافي والواسطي والفارابي والكاظمي، كما تَمَثَّلَ في ذلك التمثال البرنزي.

فبدا أبو نواس جالسًا على مقرُبَةٍ من دجلة مُعتَمِرًا عمامَتَه فوق جبهته العريضة ساهِمَ الفكر في سكينةٍ يُضاعفُ منها هدوء المكان الذي لا يوافق سورةَ الكأس وقد أمسكَ بها في يُسراه إمساكَ مَن فرِغَ من الشَّراب، فهو يَطلُبُ المزيد، وأسندَ كوعَهُ إلى مقعدِه، في حين أرخى ذراعَهُ الأخرى إلى رُكبَتِه اليمنى بحيث يُلامِسُها ظهرُ كَفِّه، وتبدو تضاعيفُ ثوبِه المنسدل بدون مبالغَةٍ في التفاصيل وقد كان منه – رحمهُ الله – إنابةٌ إليه قبلَ أن يتوفاه بأشعار باديَة الصِّدق ، منها :

إلهـــَي لســـتُ لِلفـــردَوسِ أهـــلًا ولا أقـــوَى علـــى نارِ الجحـــيمِ

فَهـــَبْ لي تَوبـــَةً واغفـــرِ ذنـــوبي فإنـــَّكَ غافِـــرُ الذَّنـــبِ العظـــيمِ

ومنها :

يا رَبِّ إن عَظُمَـت ذنـوبي كثـرَةً فلقد علِمتُ بِأنَّ عفوَكَ أعظمُ
أدعـوكَ رَبِّ كما أمـَرتَ تَضـَرُّعًا فإذا رَددتَّ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ
إنْ كـانَ لا يَرجـوكَ إلا مُحسـِنٌ فـَبِمَن يَلـوذُ ويَسـتَجيرُ المجـرِمُ
مـا لي إلَيـكَ وسـيلَةٌ إلَّا الـرَّجا وجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ إنِّيَ مُسلِمُ

ومنها في الرَّجاء:

يا كبـيرَ الـذَّنبِ عَفـوُ الـ ـلَهِ مـِن ذَنبِـكَ أكبَـرْ
أكـْبَرُ الأشـياءِ عـن أصـ ـغَرِ عَفـوِ اللّهِ أصغـَرْ
لَيـسَ للإنـسانِ إلَّا مـا قَضـَى اللّهُ وقّـدَّرْ
لـَيْسَ للمَخلـوقِ تَدبيـ ـرٌ بـَلِ اللّـُهُ المدَبِّـرْ

سيرقب التمثال في سكونه البرنزي وقد ضاعَفَ مِن سدوره هدوء مُخَيِّم، وكأنما نبذَه حيثُ هُوَ البغداديون ونفضوا أيديهم منْ مَخبَرِهِ ومن مَعتَبَتِه ومناجاتِه إياهُم :

ما جِئْتُ ذَنبًا بهِ استَوجَبتُ سُخطَكَمُ أسـتَغفِرُ اللهَ إلا شـِدَّةَ النَّظـَرِ
يا أهـلَ بَغـدادَ ألقـَى ذا بِحَضـرَتِكُم فَكَيفَ لو كُنتُ بَينَ التُّركِ والخَزَرِ
سـَحَّتْ عَلـَيَّ سمـاءُ الحـُزنِ بَعـدَكُمُ وأحدَقَتْ بي بحورُ الشَّوقِ والفِكَرِ

ولن يسنَحَ له أن يُطالِعَ تلكَ اللَّوحَةَ التي ستَضَمُّها إليهِ أمانة العاصِمَة بعد أن تنفضَ هذا السكون وتبثَّ في لواحِهِ سيَّالًا من الري وتُريقَ على عتمتِه سَبحاتٍ

منَ النور متمثِّلَيْنِ في شَبَكَةٍ للريِّ وأعمِدَةَ للإنارة، فتغدو السَّاحةُ وتُمسي مُتَنَزَّهًا يؤمُّهُ قُصَّاد المتعَة ورُوَّاد التَّسرية، وتتجاوَبُ فيها هَمساتُ العُشَّاق بين هبَّاتِ النَّسم و ظِلالِ الشَّجَر، ويقرَأ عليها القارئون عِبرَةَ إمامِهم في اطِّراح الغَمِّ والتَّخَفُّفِ من الهموم :

يا سائِـــــلَ اللّهِ فــــُزْتَ بالظَّفَـــــر وبالنَّــــوالِ الهـــَنِيِّ لا الكـــَدَر

فارغــــــَبْ إلى اللهِ لا إلى بَشـــــَر مُنتَقـــلٍ في البِلـــَى وفي الغـــِيَر

وستنجابُ عن ضفَّة النَّهر في تِلكَ البُّقعَةِ الوَحشَة، حتَّى إذا سُئلَت الزَّائِرَةُ: فيمَ مثولُكِ؟ كانت إجابَتُها بالعراقية التي تَسلُس على شِفاهِ الغواني: "نُوَنِّس بيها الجُهَّال" وهي تعني، وكأنَّما تستَبعِدُ حَظَّ نَفسِها: نُرَفِّهُ بها عن الصِّغار.

وقد انتَفَضَت الضِّفَّةُ حيَّةً بشخوصِ كلِّ ذات قوامٍ رَخصٍ تَتَخَطَّرُ على إيقاع مفاتنها، وللعراقيات قوامٌ يترَقرَقُ أُنوثَةً على الرَّغم مِن مَيلِهِ إلى الامتلاء، بل لعلَّهُ من الأليَقِ أن نقولَ لِمَيلِهِ إلى الامتلاء.

وكانَ في تجوالِه يومَ لمحَ طَيفَ إحداهُنَّ يختالُ في لجَبٍ من صوارِخِ حُسنِهِ، فما هُوَ إلا أن اندَفَقَ سيَّال الشِّعر على شَفَتَيهِ، وهوَ لا يَدري أيَّ وجيفٍ دَفَّقَ من سُبات الحِسِّ، فأحالهُ عُصفورًا يَشدو على فَنَن الجَمال :

غُصـــنٌ يَميـــلُ دَدًا يا فِتنـــَةً خَلَبـــا لـولاهُ مـا غـَرِدَ الشَّـحرورُ أو نـَدَبا

وسيهدرُ بالشِّعر على دِجلَةَ وإنَّ لذلكَ الجمالِ من نفسه لَبَعثًا على الشَّدوِ يُكافئُ مأخذَهُ منها ، وقَد جَعَلَ كُلَّما ضاقَ صَدرُه وواتاهُ صفاءٌ من الجَوِّ هُرِعَ إلَيهِ فنَفَضَ هُمومَه على سَرحِه ، فكانت منهُ مثلُ تلكَ النَّغمات :

حبَّـــــــذا عـــــزَفُ المزاهِـــــــرْ وجَبـــــينُ الكــــَونِ ساهِــــــرْ
ومَســــــيرُ المـــــوجِ بيــــنَ الـــــ ـبَــــدرِ والظَّلمــــاءِ حائِــــرْ
رِعـــــــشَةٌ تَجلــــــو مُحَيَّـــــا هُ رُؤًى في نَـــــوْمٍ خائِـــــرْ
وســـنًى يَحكـــي المـــنى في الـــ ـقَلـــبِ والإمـــلاقُ دائِـــرْ
تَحتـــــهُ الأســــــرارُ كالأشـــــ ـــعارِ في جـــوْفِ الســـرائِرْ
وخَريـــــرُ المــــاءِ بـــثُّ الـــ ـــوَجْدِ مــِن قلبـــي المثِـــابِرْ
وأريــــــجُ الزَّهْـــــرِ والرَّيــــ ـــحانِ لِلأجـــواءِ غـــامِرْ
مُلتَـــــقَى الرُّوحَيـــــنِ والحِبـــــَّ ـــينِ في وَكـــْبِ المِشـــاعِرِ
رافـــِدا النَّهـــرِ اســـتَلَذَّا الصـــ ـصـــبَّ في يَـــمِّ المِقـــادِرِ
فَتعـــــالَي نُرقِـــــدِ الشَّكــــ ـــوَى علـــى كـــَومِ البيـــادِرْ
تحـــتَ نـــُورِ البـــَدرِ ينشـــو الضـــَّ ـــوءَ في كـــفِّ البواســـِرْ
إنَّ قلبــــــــي يا فَتـــــاتي لا تُـــراعِي قَلـــبُ شاعـــِر

ويعرجُ في عودَتِه على المحلات يستجلي معروضاتها التي تومئُ إلى معيشَةِ ذَوي التَّرَف، وربما استلفَت نظرَه إعلانٌ لإحدى دور السينما عن فيلم أجنبي حديث يُعرَضُ في

توقيتٍ يوافِقُ عرضَهُ في بلَدِه، فأوغَر صدرَهُ ألا يَجِد من عوَزِه قدرَةً للتفريج عن نفسهِ، على أنه لن يَحجُر على رئتيه أن تنسما عندما يُتاحُ له .

وكان في تجواله يُحِسُّ حَرَكَة مُريبَةً لليل في بغداد لا يدري أكانَ باعثها دوريات الشُّرطة التي لا تنفَكُّ دائرَةً أم جلَبَة بعض السكارى الذين لا تناهم يدُهم بتأديب، أم تلك الفئران الضَّخمة التي تركضُ في الأزِقَّة وقد أنِسَت إغلاق المطاعِم وخِفَّة الحركة على الطريق، أم هو إحساس من انقضى نهاره فيما لم يخرج به من رصيد لطماحه ويوشك أن يُخمده ليلٌ بليد لنهار منه أفترَ وأبلَد، فما كان بمستطيع أن يأخذ في المطالعة حتى تباغته أمواج الضياء ينثوها مطلع الفجر في مرأى عينيه، وهو يودُّ لو ترَيَّثت كما كان يحدث في وادي حوف، وكان حينها يخرج إلى الشرفة يتلقَّى أول أنفاسهِ ويشهد الطل يرفُّ على أوراق الشجر في الحديقة التي عنيَ بها والده، والتي راحت تذوى منذ رحيله ، ويرقُبُ مطلَعَ الشَّمس تتسلَّلُ من وراء المِقَطَّم، ذلك الذي سيناجيه ذات يومٍ من ديسمبرعام 1976 بعد وفاته، وجرحه برحيله لا يزالُ يشغَب :

امـــــــــلأ المِقَـــــــــــل   أيُّـــــــــــها الجبَـــــــــــلْ
إنَّـــــــــــما المِنَـــــــــــى   في النُّهـــــــــَى خَبَـــــــــلْ
لَيْـــــــــسَ يـــــــــرتَجي   ضَيعَـــــــــــةَ الضَّنـــــــــَى
غَيـــــــــرَ مـــــــــَن رأى الـــــــــ   رَّمـــــــــسَ موطِنـــــــــا
صـــــــــُحبَةُ الـــــــــوَرَى   مَبـــــــــعَثُ المِلَـــــــــلْ
ســـــــــَوْمُ ذا الجهـــــــــا   مِ الحيـــــــــا خَطَـــــــــلْ

(11)

لطالَما أحَسَّ بالوَحشَة تجثُم على صدرِهِ، وودَّ لو مَسَحَت يدٌ حانيَةٌ عنهُ أوصابَه، ولو انتابَه هذا في القاهرَة لسارَعَ بالزَّواج وأخلَدَ إلى امرَأةٍ تمسَحُ بكفَّيها الرَّخصتين رأسَهُ الحار ولما أعياهُ أن يَبثَّ صدرها العَبِقَ أنَّات فؤاده كما عبَّرَ عن ذلِك بقولِهِ لإحداهُنَّ، وكانت آيةً في الأنوثَة :

هـَل عَلَينــا غَضاضــَةٌ لــَو بَثَثنــا بــَضَّ نهـَدَيْكِ هَنْهنــاتِ الــوَتينِ

ولكنَّهُ عابرُ سبيل ومقامهُ هنا على حافَة بركان لا كبُركانِ نيتشَه، أفيزيدُ الطِّينَ بلَّةً ويُجَنُّ ، فيتبعَ وصيتَه؟ كلا، إنَّ ذلكَ لخليقٌ بأن يُلحِقَ بهِ جنونَه ؛ فليحمل الشَّطَفَ على كتفَيه ، وليحتمل اللهاثَ في رِئتيه حتَّى ينفضَه عن أنفاسِه فيهدر :

أنـــــا لا أبـــــكي بِعَيـــــنَيَّ م كَشـــــــأنِ التُّعـــــــسَاءِ

لَكـــــنِ الكــــأباءُ في سُحـــــ ـــــرَيَّ تَبكـــــي بالــــدِّماءِ

وسيُصبحُ ذاتَ نهارٍ على خبَرٍ يُثلِجُ صدرَه، ويفتَحُ في نفسهِ مغاليقَ الأمل؛ ذلِكَ أن جاءَهُ نبَأُ البريد يصلُ إليه من القاهرة فإذا فَضَّهُ وَجَدَ مُسَوِّغاتِ تعيينِه بينَ يَديه، ومن يدري؟ فلعلَّ ما استَحوَزَه من نصَبٍ كانَ أداةً يُضاعَفُ بها الشُّكرُ للهِ ويَزدادُ بها حِرصُهُ على إتقانه عملَهُ؛ إذ يَستَصغِرُ من أعبائِه ما ينهَضُ بهِ مقيسًا إلى ما استَهوَلَهُ من كدحٍ قبلَ استلامه .

ولكن ها هو ذا يَحتمل شهادَتَهُ فيطوف بها بغداد، فإذا هيَ تأبى إلا أن تُطيلُ نكباءَهُ ، فتوصِد وزارَتُها في وجهه السُّبل، ولا توسعُ له محَلًّا في كنَف الوظيفَة وكأنَّما آثرت أهلها بالمناصب التي ترى لها خطَرًا وصانتهم عن مزاولَة ما يكد الجسد ويُرهِق الروح، فتَعَطَّفت به على كل من انقطعت به السُّبُل إليها وهاضَه أن يَجدَ بها قوتَه بما يحمل من مؤهِّلات .. فيمَ كانَ إذن كل هذا التَّعجُّل في استحضار مؤهِّله وكل ذلك الإلحاح على أهله في إرساله؟

تأبَّت عليه بغداد ، وكانت حُجَّةُ بغدادَ أنَّ المدارس لا تشتكي العجز في المادة، أفَيَحملُ نفسَه على أن يُذعِنَ لذلك أم يعصب يدهُ الكليلةَ ويروح يطرُق الأبوابِ فَيجوبُ من بقاعِ العراقِ ما يجوبُ، فلَعَلَّ انفراجَةً تلوح لنفسِه الحَسرَى ولَمسَةً من ظلال الرَّوح تنفَحُ عيشَه ؟

وسألَ فدلُّوه على محافظة ديالى التي تقَعُ في الشمال الشرقي من بغداد وتبعد عنها بنحو 57 كيلومترًا، فسحب من راعي الفندق جواز سفره ذاتَ نهار وحمل مؤهِّلَه ، وما هي إلا هُنَيهات حتَّى انتظمته السيارَةُ المتجهة إلى ديالى فراحَت تَخبُّ في الأرض وتنتهِبُها انتهابًا، حتَّى لَفَظَتهُ في الطريق بعد انطواء 50 كيلومترًا، حسبما شاءَ، وكانَ قد وقع اختيارُه على قطاع أو قَضاء "بعقوبة"حاضرتها الكبرى وأعمَر أقضيتها الستَّة بالسكان، فعلى أرضها ينسَمُ قرابَةُ نِصف سُكَّانها، ومعَ الكثرَة ورغبة الأهالي في تعليم أبنائهم تكثُرُ المدارِس، ويَغلُب على الظَّن ألا يَفي عدَدُ المعلمينَ بتغطيَتِها .

ولكن ماذا لو جاءَه الرَّد على وفقِ ما جاءَهُ في بغداد؟ ماذا لو جُوبِهَ بأن لا موضِعَ لمعلمٍ وأنَّ المدارسَ جميعها قد استوفَت نصيبها من المعلمين؟ وكيفَ يقيم الحُجَّةَ على مدير الإدارة وذوي الشَّأن بأنَّ اطِّراحَهم إياه وإعراضهم عن الإفادة من علمِه في مجالِه نقص في المروءة وسفَه في العقل و تَجَنٍّ وتفريط؟

سرعان ما جاءَه الرَدُّ ، إذ لم يَكَد يَقطَعُ خُطُواتٍ حتَّى عرضَ لعينَيهِ لافتة لمدرسَةٍ إعدادية يزينُها اسمٌ يحبُّه "مدرسَة الشريف الرَّضي"، فلمَ لا يبدَأُ السلَّمَ من أسفَلِه فيسأل مديرَ المدرَسَة عن نصاب الحصص لديه وإن كان له من المدرِّسين من يكفونَهُ؟ وقد فَعَلَ وتلقَّاهُ الرَّجُل بوجهٍ طلق بعدَ أن عرَّفَهُ بنَفسِه، وراحَ يقولُ: أهلًا وسهلًا .. نعم، إنَّ بالمدرَسَة لعَجزًا. فسألَهُ إن كانَ يقبَلُه لو التمسَ من الإدارة أن تُدرِجَهُ ضِمنَ مدرِّسيه، فَوَجَدَ منه ترحابًا لمِسَ صِدقَهُ في وجهِه ورغبَةً في القبول .

وحثَّ الخُطَى ووَلَجَ بابَ الإدارة التعليمية ، فَبِمثلِه استَقبَلَه المدير، وجرَى بينهما – بعدَ أن عرَّفَه بنفسِه وبمؤَهِّلاتِه – حوارٌ، أدركَ معَهُ أنْ لا سبيلَ إلى غير الشَّقاء في العراق الرَّحيب :

–نعم ، ولكن لا عجزَ لدينا في المدارس.

–يا سيدي، أنا قادم إليكَ من مدرسَة "الشريف الرَّضي" وقد أبلَغني مديرُها بحاجَتِه إلى معلم للمادَّة!

فاستمهَلَهُ ورفعَ سمَّاعَةَ الهاتِف، وأخَذَ يُهَمهِمُ، وكأنما يتلقَّى الأمرَ من جِهَةٍ، لم يَصعُب علَيه أن يتبَيَّن أنها شخصيَّةٌ من حِزب البعث، ثمَّ وضَعَها، وبادَرَه بقوله: للأسف لا مجالَ لقبول عرضِك.

وبدَت أريَحِيَّةُ الرَّجُل ورغبَتِه في ألا يصرِفَه كسيرَ الخاطِر ، فقالَ: "ماذا لو عُرِضَ عليكَ أن تُلقِيَ دروسًا في الفنون في شكل مُحاضراتٍ ؟".

– لا بأسَ بذلكَ، وإنَّ لدَيَّ لثقافَةً واسِعَةً أرجو أن تتَّسِعَ دائِرَةُ الإفادَةِ بها فَوقَ ما تَتَّسِعُ بالدروس .

وانداحَت أمامَه فَسحَةُ الأمَل، فها هوَ يوشِكُ أن يَجِدَ وسيلَةً لمعاوَدَةِ القراءة في سبيل إعداد محاضراتِه وهيَ ما هيَ من سريان عِشقها في دَمِه، وأن يقَرَّ به المقام، فيستَشعِرَ آدَميَّتَه، ويستجمِعَ من المال ما يُعينُه على إنفاذ عزمِه على الرَّحيل .. ولكن لم يكد يبسَمُ خاطرُه لذلكَ الوافِدِ، حتَّى عاوَدَ المديرُ رفعَ الهاتف وسرت من فيه همهماتٌ كأخواتها، ادلَهَمَّ واكفَهَرَّ علَى إثرها ، وقد فجأه بقوله: "حتَّى هذه لا سبيلَ إلَيها".

هي الخطَّةُ الموضوعَةُ لئلا يشغَل الشَّاغِرَ غيرُ العراقيين تُسفِرُ عن وجهها، وإن ادَّعى البعثيون إنصافهم المصريينَ ونادى نائب رئيس جمهوريَّتهم، الذي قضى ردحًا من عمره في مصرَ وتلقَّى شطرًا من العلم في إحدى جامعاتها ، بوجوب الإحسان إليهم ، وهي المصلَحَةُ تكشِفُ عن استغلال الأيدي العاملة في وجوهٍ من العمل لا تتمَيَّز

فيها الرءوس ، بل تَذهَلُ عنها الأنفُسُ لفرطِ ما تبذلُ من الكَدِّ وتلقى من زهيد الأجر .

تعسًا .. أكتبَ عليه أن يصل إلى الورد على جسرٍ من الشوك؟ آهِ يا بغدادُ لو مددتِ إليه يدكِ لحلَّى جيدَكِ بالفرائد ورصَّعَ ساعدَيكِ بالحُلى ومَوَّجَ على ساقَيكِ خلاخل الذَّهب واللُّجَين، ولكن ها هو يعودُ إلَيكِ يُجرجِرُ الخيبَة، فتُثقِلينَ كاهِلَهُ حتَّى لتكادِي تُكَبِّلينَ ساقَيهِ.

وإنهُ ليمشي في الشَّارع الرئيسي ببعقوبَة تلك التي انتزعَها عامَ 637 م هاشم بن عُتبَة قائد جيش المسلمين في معرَكَةٍ حامِيَة من يزدجرد قائد الساسانيين الفُرس، و كانت معقلًا من معاقلهم، والتي أضحَت معبرًا بين بغداد وخراسان خلال الخلافة العبَّاسية وعُرِفَت في العصور الوسطى باسم طريق الحرير، فيلمَحُ من بعيد أشباحَ النخيل في بستان لا يرى لأمده انتهاءً.

ويَذكُرُ أنه على بُقعَةٍ من أرضٍ أُطلِقَ عليها ذاتَ يومٍ اسم "بلد النَّخيل" و "بلد المليون نخلَة" وبلَغَ من نمُوِّ نخيلها أن أحصَوها عام 1970 بـ 34 مليون نخلَة، تطرَحُ من أصناف التمر العالمية التي تبلغُ ستمائة صنف مُعظَمها ، وستتميَّزُ ديالى منها بصنف يسمَّى (تَمر الأشرَسي) يتَّصِفُ بكبر حجمهِ ويُستَخرَجُ منه الدِّبس (عسل التمر) الذي لا يسعُهُ نسيان مذاقه وهو يفطرُ عليه في بغداد مرشوشًا فوق الجيمر (القشدة) وجبَةً لم يجدها عند غير العراقيين.

وستنحسرُ رُقعَةُ بساتين النخيل من العراق لأسباب بدأ بعضُها أثناء وجودِه بها، منها تعرُّض الثِّمار لأمراضٍ يُسَبِّبُها هطولُ الأمطار وارتفاع الرطوبة أثناء فترة النضوج في بعض المناطق، واستهدافها من قِبَل بعض الحشرات والفطريَّات و الطيور والزَّنابير والجرذان، وتلوث بعضها بالأتربة؛ لقصَر نخيلها وإهمال الأهالي عملية التكميم أو التَّكييس التي كانَ من شأنها –وهيَ تغطيَةٌ للعذوق بما تحملُ من جَنًى بأكياس ورَقيَّة مُثَقَّبة وبأكياس بلاستيكية مُشَبَّكة– أن تمنَعَ إتلافَها، وتحولَ دونَ تساقُطها بَدَدًا على الأرض، فضلًا عن تسهيلها جمعَ المحصول.

وسيكون من أسبابَ الانحسار امتداد المناطق السَّكنية وإقامَة المشاريع العمرانية وبناء مصانع الحلويات والأواني وشَقُّ الطُّرُق والشَّوارع وزراعَة الحمضيَّات والبرتُقال، وسيجهزُ على الكثير منها بعد رحيله مصائِبُ الحروب والأزمات التي لا يكادُ يفارقُها حتَّى تنصَّبَّ عليها انصبابًا ، فتقطع الكهرباء وتعلي ثمن الوقود على طاقَة مُلَّاكها فتظمَأُ وهي المطِلَّةُ على الرافدَين، ويظمَأُ معها نخيل ديالى.

وإنَّ بها لنهرًا يحملُ اسمها وينبع من إيران جارِيًا في شرايينها لِيَنْصَبَّ في صدر دِجلَةَ، وينخَفض عددُ النَّخيل إلى تسعَة ملايين نخلَة، فتغدو العراق مستورِدَةً للتمور بعدَ أن كانت أهَمَّ صادراتها الزِّراعِيَّة، وكانت تُعَمرُ كثيرًا من البيوت التي عملَ أربابُها في صناعَة تعبِئَتها في خمسينِيَّات القرن الماضي، وسيَئول الأمرُ إلى أن تنحصرُ زراعَتُها في ثلاثَ عَشَرَةَ محافَظَةً هيَ بغداد والبصرة وميسان وواسِط وذي قار والمثَنَّى والقادِسيَّة والنَّجَف وكربلاء وبابل وصلاح الدين والأنبار وديالَى، تلكَ التي يَخطو

فوقَ لفاء حاضِرَتِها، وسيبصرُ مُنعَطَفًا يتخلل نخيلًا وجنَّاتٍ من أشجار الفواكه ترِفُّ أغصانُها على الجانبين، فيمشي وإنَّ أمامه لأفقًا ضاحيًا تتخطَّرُ خلالَه بعض رقاق السُّحُب، مسوقًا بحضرَة الجمال، كأنهُ في حلم لا يملك كبحَه، وكأنما هو نبت من النبت كما عبَّرَ في بغداد الجديدَة تحت دوحَةٍ من أدواحِها، فقال:

أنــــا بـــَيْنَ النَّبـــتِ منـــهُ لســـتُ أنســـَى بَجـــدَتي

ضـــارِبٌ في الأرضِ جـــذري والثَّـــرَى مـــِن مَنبـــتي

فَـــإذا الشحـــرورُ غَـــنَّى نافِخـــًا في غَفـــوَتي

ذابَـــتِ النَّشـــوَةُ منـــه في ثَنـــايا نشـــوَتي

وإنَّهُ لفي سدرَتِهِ تلكَ إذا بِهِ ينتَهي .. ينتهي إلى سياجٍ وراءَهُ مقابِرُ تتمدَّد ساجِيَةً في حضن السَّكينَة ، قد فرَغَ ذووها من جِلاد الدُّنيا ، وأخلَدوا إلى ضجعة الضَّريح .. يا طلعَةً متَعَت على غَفلَة الذِّهن ونزلَت على لوعَة القلب طلوعَ الآسي ونزولَ البُرءِ! لكأنما كانت عيناهُ عمياوَينِ فانبَلَجَتا وكانَت أذُنا بصيرَته في غشاوَةٍ فانفتَحتا، ولو سمِعَ لألف عِظة في ضآلة الدنيا وقرب المنقلَب إلى لفاء الأرض، وعدم جدوَى اللهاثِ في السَّعي ، لما كانَ لها مسحَةٌ من الأثر الذي أهالَته تلك اللمحة على نكادهِ وشقاء نفسه بخيبَة الأمل في الظَّفَر بما يؤمِّلُهُ من نُجح المسعى في امتهاد السبيل. ولقد أصغى، فسَمِعَ ووعَى: أرأيتَ إلى تنكُّبَك الأرض وتطوافكَ في سوح الجمال وتَشَوُّفِكَ إلى احتواء الكَون بينَ حنايا أضلُعِكَ إلى أينَ يُفضي وبماذا عساهُ علَيكَ أن يعود؟

ورجعَ –معَ ذلك– إلى نفسهِ فإذا بها على شَغَفها بتَطَلُّب المثل الأعلى ولهفَتِها على تملِّي الحُسن واستنطاق آياته، فهو يقتضيها ما تقتضيه الحياة من كل متَفَتِّح النَّفس على بواعِثِها، فإن قُدِّرَ له أن يَحيا، فلتكُن حياةً في سبيل الحقِّ والجمال ، وليبذُل من نفسِه ما تسَعُه الحيلَةُ ويفرِضُه الواجب؛ لينتَزِع منها نصيبَ الأقوياء، ثمَّ لَيكُن ما يكون، فليست سواءً حياةٌ تطمحُ إلى العُلى، وحياةٌ تدبُّ دبيبَ الهوام، وإن اتَّفَقت النِّهايَةُ وتشابَهَ المصير .

وآبَ إلى بغدادَ وقد انبَتَّ أملُه في أن يَختَزِل مقامَه، فليس وراءَ ما فُرِضَ عليه من أعمالها مطمَعٌ في أن يحظَى برَصيد يُعجِّلُ بمفارَقَتِها، وإنَّها لَتوغِلُ في إعناتِه، فلا تُنيلُه لُقمَتَه إلاَّ مغموسَةً في عَرَقِه ولا ترتضي لهُ من سُبُل استدرار الرِّزق إلا ما يُسَوِّي بينه وبينَ من لم يُمَرِّر ناظرَه على كتاب أو يُعَفِّرْ قَدَميهِ في تحصيل علم، وإنه لَيَقفُ معهم من مطلَع النَّهار في ساحَة الطَّيران، وكُلٌّ يترقَّبُ أن تحضر سيارَة لمقاول مبانٍ ليُحَمِّلَ مَن العُمَّالِ من ضحكَ لهُ الحَظُّ –معَ إعناتهم– فإذا جاءت سيارَةٌ بين حينٍ وحين ، تداعَوا إلَيها ، فكانَ أحظاهم بتسَنُّمها أجلَدهُم وأقدَرهم على المزاحَمة ، وكان معَ إشفاقِه علَيهم أن يُزاحِمَهُم في العمل الذي لا يتقنونَ غَيرَه يجدُ نفسَهُ مُضطَرًّا إلى أن يُسابِقَهُم إلى احتِجاز موضع في السيَّارة، ولو اقتضَى الأمر التضارُب بالأكتاف والمدافَعَة والتَّعويق، وإنَّها للحياةُ في أدنى مراتبها، حيثُ لا بقاء لضَعيف، ولا مَطمَعَ لمتخاذِلٍ إلا في صفار اليدين من بُلغَة المسكين، وربما ذَكَّرَه ذلِكَ بقول حكيم المعَرَّة :

تناهَبــَتِ العــَيشَ النُّفــوسُ بِقــوَّةٍ فَإن كُنتَ تسطيعُ النِّهابَ فناهِبِ

وتردَّدَ في خاطِره قول بشَّار :

مــَنْ راقــَبَ النــَّاسَ مــاتَ غَمــًّا وفــــازَ باللـــــَّذّة الجســـــورُ

وهناكَ حيثُ يُشَيِّدُ البنَّاءون أكداسَ الأسمنت والحجارَة على حنايا أضلاعهم وزحرات أنفاسهم يُعملُ يديه في تحميل وعاءٍ من الصفيح دعَّموهُ بحمَّالَةٍ من الخَشَب أثقال الحصى مرَّةً وأكداس الرمل أخرى والأسمنت ثالثةً فيُلقِمَها مكِنَةً تولى أحدُهم صَبَّ الماء فيها، فلا تنفكُّ دائرَةً منذُ الصبيحة إلى العصر تمزج في جوفِها الخليط فتلفِظُه مزيجًا غليظًا، يعاودُ حمله بالوعاءِ نفسه في شكله الجديد، فإن صادَفَ أن كانَ البناءُ أرضيًّا كانَ العبءُ -معَ ثِقَلِهِ- أهوَنَ، فما هوَ إلا أن يظلَّ ذاهبًا، ليُفرِغَ حمله، راجِعًا ليَحمِلَ المزيد.

فإذا كانَ المنشأ في الطابق الثانى أو الثالِث زادَ الجَهدُ أضعافًا، فقد كانَ يتَوَجَّبُ عليه أن يصعد بما يحملُ على كتفِه فوقَ سَقَّالةٍ مراعِيًا أنْ يتوَسَّطها وألا يَجنَحَ ذاتَ اليمين أو ذاتَ اليسار حفاظًا عل حياتِه من الهُلك، ويَظَلُّ الكدحُ متَّصلًا، لا يُنقِذه من اتِّصاله إلا فسحَةٌ لا تزيد على نصف الساعَة، ينتهبُ فيها طعامَه مع الطَّاعمين بُلغَةً لتَتِمَّة العمل، ثُمَّ يعاوِدُ الشقاءُ انتهابَه من الأجساد والأنفُس حتَّى تجنَحُ الشَّمسُ عن كبد السماء إلى حَيثُ توشِكُ أن تغيب .. هُنالكَ يَغسِلُ الكادحون وجوههم

ويُبَدِّلون ملابِسَهم ، ليتلَقَّوا أجورَهُم مساءً من المقاوِل في مَقهًى من مقاهي شارع الرَّشيد أو غيرِهِ.

ويعودُ إلى فُندُقِه بذهنٍ مُبَلبَلٍ وجَسَدٍ مرضوض ونفسٍ قصاراها أن تطلُبَ الراحةَ وتلتَمِسَ النَّومَ الذي كانَ يُسعِفُه فَيلفُّه في طيلسانِه المهَلهَل، فما كانَ يُزعجُه قدرَ الحرور، وتسحبُه إلَيه مروَحَة في السقف شيئًا فشَيئًا، وقد كادَت تقتلُه عندما تمدَّد تحتها فغلَبَهُ النُّعاسُ ذاتَ يَوم، وعالَجَ بعدَ صحوهِ الوقوفَ فَترَنَّحَ وعجزَت ساقاهُ عن أن تحملاهُ، ثمَّ هوَ يصحو، فيستحمُّ ويغيرُ ثيابَه ويخرجُ وقد انكسرَت معَ أنفاس دِجلَةَ لَفحَةُ الصَّيفِ ووقدَة الهجير، فيبادرُ بتحصيل أجرِه، ثمَّ يشرع في تجوالِه، فيعود إلى مرقَدِه ليستقبِل في غدهِ الشَّقاء إن قُدِّرُ أن كانَ لعملِهِ بقيَّةٌ .

وكانَ يتصادَفُ أن ينتهِيَ عملُه، فيشرَع في البَحثِ عن آخَرَ جديدٍ وبينَ مُكثِهِ والعثورِ عليهِ يُنفِقُ على ضروراتِه ما حصَّلَهُ من الأوَّل، فكبُرَ في ظنِّه أنه لن يُحَصِّلَ على هذا النحو ما يستكملُ به رِحلَتَهُ وفقَ ما خَطَّطَ وهُنا كانت نفسُه تهيجُ ويُحسُّ لذعَةَ المقهور، فلا يملكُ إلا العودةَ على أهلِه باللَّائِمَة، فماذا لو أعانوهُ على مقصِدِه، فما قصَّفوا مجذافَيهِ ولا أزاغوا وِجهَتَه؟

وفي نوبَةٍ من تلك النَّوبات التي كانت تعتريهِ فتريقُ اللَّوعَةَ في قلبه وتُسيلُ المرارَة في لعابِه أحضرَ ورَقَةً وسحَبَ القَلَم وكتبَ إلى أختِه، وكانَت علَيه عطوفًا: "لقد شعَرتُ بضرورَة التَّحَوُّلِ منذُ الوَهلَة الأولى، وللنفوسِ إلهامٌ لو اتَّبَعَته لظَفرَت باستجلاءِ الكثيرِ مِمَّا يُتَوقَّع وطالَبتُ بشهادَة التَّخَرُّجِ، وفي غالِب ظنِّي أنْ ليسَ من الجائِز ألا يُوجَدَ

عَمَلٌ يُناسِبُها، على أني شعرتُ بأن لا سبيلَ إليهِ من قبلِ سؤالٍ، وطابَقَ البَحثُ في الواقِعِ الشعورَ في النفسِ، فصَحَّ ما زَعَمتُ لكِ ولم أنتَظِر خاليَ اليَدِ من عمَل، فعملتُ للغَدِ بذلك الإلهامِ وجهدتُ وأكَلتُ من كَدِّ يَدي.

أمَّا عن العَمَل وماذا عساهُ أن يكونَ فهوَ أمرٌ لا أرَى فيهِ لكِ كبيرَ عائِدٍ، وإنَّما يعنيكِ –إن صَحَّ شعورُكِ– أني يَمُرُّ علَيَّ اليَومُ عامِرَ اليَدِ بما يكفي قوتي ويَزيدُ، ولقَد مرَّت علَيَّ أيَّامٌ كانَ إرسالُ الخطابِ فيها يوشِكُ أن يحرِمَني تناوُلَ وَجبَةٍ، ووصَلَ إلَيَّ في مثلِ هذه الحالِ منكم خطابانِ، فلم أجِد من نفسي –وإن توافَرَت لدَيَّ القُدرَةَ على الرَّدِّ– فسحَةً في النَّفسِ والوقتِ للإمساكِ بالقَلَم، وإنَّما هوَ يومٌ حاشِدٌ، يُحَصِّلُ ليلُه نهارَهُ ويَغيبُ نهارُهُ في لَيلِهِ وقد كَلَّ الجِسمُ وتاقَت النَّفسُ إلى رَوحٍ وفَسحَةٍ.

حتَّى القراءَةَ لم أستَطِع لها اقتِناصًا إلا بينَ الحينِ والحين، وهوَ ما يَغمُرُ القلبَ بالوَجدِ ويُحيطُ الحِجَى بأشباحِ السقام؛ فقَد خُلِقتُ ولي رأسٌ كالمِعِدَةِ يأكُلُ ويَشرَبُ ويَنقَبِضُ إذا جاعَ كما تنقَبِضُ، ولَقَد تُحدِقُ به الهواجِسُ فيَثقُلُ ويُطرِقُ.

كلَّا ليسَ في العمَلِ الحُرِّ مِن عيبٍ كهَذا .. أن يُقطَعَ فيه اليَومُ، فلا يَبقَى فراغٌ لمن كانَتْ طبيعَتُه كذَلك، وهأنذا أذكُرُ شُحَّ الأقارِبِ كُلَّما عنَّ مُشكِل، وكيفَ لا يردُ على البالِ، وقد أردت الغُنمَ فصادَفتُ الجدبَ؟!

هُناكَ في أوربَّا على الرَّغمِ مِن كُلِّ ظَرفٍ، مهما يعظُم ضيقُهُ، كانَ العائِدُ لُغَةً تُكتَسَبُ ومرانًا على الحديثِ ومُشاهَدَةً لنتاجِ القَومِ في جوانب الفكرِ والشعور وعَبًّا مِن جمالِ

الطَّبيعة ورَوعَة مجاليها مِن جِبالٍ خُضرٍ ووهادٍ وحدائِقَ وأنهارٍ وصخورٍ وشلَّالاتٍ وسماء وسُحب وأنواءٍ وغاباتٍ نَمَتْ في حضنِ الطَّبيعة وشَبَّت لم تُفسِدْها يَدٌ، تَحتَسي الطَّلَّ وتُلقي على الأرضِ مُكتَسيَةً بالشَّذَبِ رِداءً شفيفًا مِن ظِلٍّ تُنَمنِمُ الشَّمسُ مِن بين الغصونِ نَسيجَه ما بينَ أخضرَ زاهٍ وآخَرَ داكِن.

هناكَ رَوعَة للألوانِ غِذاءً طازَجًا للقلوبِ لا يَزيدُ فيهِ شيءٌ أو ينقُص، وهناكَ بَهجَةُ النُّفوسِ صاعِدَةً ما بينَ الخمائِلِ معَ الشَّحارِيرِ مُتراقِصَةً معَ الزُّهورِ مُتَرَقرِقَةً معَ الأمواهِ بَينَ الحشائِشِ وثوابِتِ الصُّخور تُهَدهِدُها الجَنادِلُ ويُنَدّيها بَليلُ الجَوِّ ويَغسِلُها وابِلٌ وتُجَفِّفُها الشَّمسُ، فتنفِضُ عَن ذاتِها الأكدارَ كما تَنفِضُ عن ريشِها قطراتِ الطَّلِّ مُرَنَّقَةً بالثرَى وتَنتَعِشُ تحتَ وبيص الشَّمسِ مُتَنَقِّلَةً مِن فنَنٍ إلى فنَن .

شُحُّ الأقارِبِ هو ذا الجَمرُ والحَطَب، وما أريدُ منهُم على هذا –والنَّفسُ غَنِيَّةٌ بذاتِها– شَيئًا، وما أعتبُ لِفَقرٍ، فزادُها فيها لا يأتي مِن خارجٍ، وإنَّما يسوءُني جدًّ أن يَرَوا الجُرحَ ناضًّا فيَرُدُّوا الوجوهَ وإنَّ أخاهُم لنازِفُ محموم.

وراحَ يَعمَلُ فلا يكادُ يُحَصِّل .. عملَ حفَّارًا يقبِضُ أجرَهُ عن المتر، وعملَ مُناوِلاً للبلَّاط، يرُصُّ البلاطَ فوقَ بعضِه ويحمِلُه على كَتِفِه إلى حيثُ يَضَعُهُ، ويُمسِكُ بالخرطومِ يرويهِ من ظمَإٍ ويضربُ لهُ (بطونَه) رملًا و(أسمنت)، يخلطهما ويُراكم منهما تلًّا صغيرًا يُغَوِّرُ وسَطَهُ ويملَؤه ماءً فينتَظر حتَّى يتشَرَّبا منه قدرًا ثمَّ يروحُ يمزجهما به معالِجًا ألا يتَسَرَّبَ من بين الفُرَج، فإذا امتَزَجَ الخليطُ ملأ الوعاءَ الحديدي (الأروانَة) وهُرِعَ إلى المعَلِّم (الخَلفَة كما يسميه العراقيون) فناوَلَهُ إياهُ، ليُفرِغَه حيثُ هُوَ طالِبًا

المزيدَ من البلاطِ فالمزيدَ من (البَطون)، وهكذا حتَّى يُوَفِّيَ المساحَةَ المطلوبَةَ بأخَرَةٍ من النَّهارِ .. وكذلِكَ عمِلَ وراءَ المِحَّارِ فأدَّى ما أدَّى فيما عدا مناوَلَةَ البلاط.

وكانَ معَ كلَّ هذا الكدحِ ينظُر إلى ما تَبَقَّى في يده –وإنه لَيَجمعُ أجرَة الفُندُق– فلا يكادُ يَجدُ شيئًا، فلا اتِّصالَ لِعَمَل وإنَّما هوَ يومٌ أو أيَّام ثمَّ يَنقَطِع، ليُنفِقَ ما في جيبِه وقتَ الركود، فإذا حصَّلَ عملًا آخَرَ كانَ الشَّأنُ معَهُ كذَلِكَ، لا بُدَّ إذَن من البَحثِ عن عمَلٍ يتَّصِلُ فلا يُبَدِّدُ منه ما جمَعَ.

وراحَ يسأَلُ فدَلُّوهُ على حَيٍّ يزخرُ بالمصانع .. ذلكَ حيُّ مُعسكَر الرَّشيد ، وفي المِصنَع – أيًّا كانت طبيعَةُ العمَلِ – يسعُهُ أن يُحَصِّلَ أجرًا شَهرِيًّا يتناوَلُه في يَدِهِ جُملَةً واحِدةً، فينفِقُ منه ما شاءِ أن يُنفِقَ، ويستَبقي منه ما أرادَ أن يستبقي معوانًا على مشوارِهِ الطويل.

وعلى هذا بيَّتَ النِّيَّةَ ونامَ لَيلَتَهُ وهو مُزمِعٌ أن يقصِدَ معَ مطلَعِ النَّهارِ مُعسكَرَ الرَّشيد ، وما جالَ لَه في بالٍ أنَّه لم يكُن قَطُّ بالأمرِ الرَّشيد .

(12)

مُعسكر الرَّشيد .. دلُّوه عليه، فأفاقَ وفي نيَّتِه أن يكونَ مُنطَلَقَه إلى تَفَيُّؤِ عملٍ ينتشلُه من تسَعُّر الكدحِ وانقطاع رافد العمل.

آه .. رافد العمل، ولو قالَ رافد الحياةِ لما أبعَدَ! فبدونه لا زاد يقيم الأود ولا هناءَ في نومٍ ولا راحة في يقظةٍ ولا جوابَ عن زحير الروح تَشَوُّفًا إلى علمٍ أو أدب.

هو الموتُ إذًا، بل لعلَّه شرٌّ من الموتِ ما استَشعَرَهُ من نفاد وقت كانَ يَذخَرُهُ نشدانًا لمطالِب الفِكر والرُّوح، وقَد نُكِّبَ عَن أنٍ يستبقي في يده ما يستَكملُ به رِحلتَه، وكُلَّما شرعَ في عمَلٍ يحسَبُ أنْ قد استقامَ لهُ رِفدُه وَجَدَ نفسَهُ بعدَ يومينِ أو ثلاثَةٍ قد خلا وِفاضُهُ؛ فما اسطاعَ أنْ يستَجمِعَ قوتَ يَومِه، وإذا هو على قارِعَة الطريق.

يا نكبَةً لا تُبَدَّدُ وجَذوَةً ما لها من خَمدَةٍ في صيفٍ أو شتاء، أما لك من مخرَج وعن ضِرامِكِ مِن حياد؟! أفتكونُ تلك المدينة إذًا مطلَعَ انجياب التَّعْس وانزياح الغُمَّة؟

في الشمال الشرقيّ من مدينة الزَّعفرانية إحدى حواضر بغداد الكُبرَى التي تقبَعُ عند التقاءِ نهرَي دِجلةَ وديالَى في جنوب شرق بغداد حيثُ المدخل الجنوبي الرَّئيسي الذي يُفضي إليها ويصلها بمحافظات الجنوب – كانَ معسكَرُ الرشيد الذي إذا توَغَّلَ به الوالج ألفى نفسَه بينَ معامِلَ تنتفِضُ حياةً في واحِدَة من أهم المناطق الصناعيَّة في

بغداد، والتي راحَتْ مَصانِعُها ومواطنها المهِمَّة تستَفحِلُ بعدَ رَحيلِهِ فلا تنفَكُّ شركة الصناعات الكهربائية وشركة الصناعات الإلكترونية وشركة الأصباغ الوطنية ومصنَع البيبسي والسفِن آب ومعمل اللحوم العراقية دافِقَةً في شرايين العراق في صحوةٍ لو خُلِّيَ بينَ العراقيّينَ وبينها لكان لهم في مضمار التَّصنيع سبقٌ يَحسُدُهم –وقَد حَسَدَهم– عليهِ الغربُ.

وبمحاذاة تلك المنطقة الصناعية انتَصَبَت واحِدَةٌ من أكبَر مُنشآت التصنيع العسكري العراقي وضَمَّت في نطاقِها معهد القوالب واللحام ومُنشأة عامَّة لصناعة المنظومات الكهربائية ومحطَّةً لتوليد الطاقَة الكهربائية (محطة جنوب بغداد القديمة) وشركة عامَّة للصِّناعات البلاستيكية.

مرابِعُ فساحٌ لمن شاءَ أن يقِفَ على عملٍ يصونُ به وجهه وينتظِمُ معه عَيشُه، على أنَّ الذين وجَّهوه إلى مُعسكر الرشيد فاتهم أن يُخبروه أن اسمَ هذه المنطقَة لم يُطلَق عبَثًا، فقد كانَ ثمّةَ مُعسكرٌ من أكبر معسكرات بغداد، استوعَبَ بينَ جناحَيه مستشفى الرشيد العسكري أكبر المستشفيات االعسكرية في العراق وقاعِدَة الرشيد الجوّيَّة ومدرسة طيران الجيش ومصانع تصليح الطائرات ومدرسة المشاة ومدرسة القوات الخاصَّة ومديرية الانضباط العسكري.

كان ذلكَ مُنذُ أنْ يَمَّمها بأخَرَةٍ من عام 1977 وسيسوءُه أن يعلمَ بمآلها بعد الهجمة الأمريكية عام 2003 إلى أن تكون مرتعًا خَرِبًا للجاموس وقد ضربَ فيه مربوها بشكلٍ عشوائي مساكنَ زريَّةً وتراصَّت بها بيوتٌ من الصفيح والطِّينِ يفتقرُ

قاطنوها إلى الكهرباء ويعتمدون في مطلبهم منها على المولِّدات الصغيرَة ولا يجدونَ في غمَّائهم شبكةً للمياه ولا شبكةً للصرف الصِّحيّ.

وقَد ضَمَّ معسكر الرشيد في جنوبه على مشارِف الزَّعفرانية مع مراكزه التجاريَّة ومراكزه العلميَّة – التي منها معهد التكنولوجيا ومعهد الإدارة التقني ومعهد إعداد المدَرِّبين الصناعيّين والكلية التقنيَّة وكليَّة الفنون التطبيقية – مُجمع الكلية العسكرية الأولى وبجواره دور سكنيَّة لمعلِّمي ومدرِّسي الكليَّة، وكليَّة الأركان ومُستشفَى القوَّة الجوِّيَّة.